

سورة العنكبوت

مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. ومدنية كلها في أحد قولي ابن عباس وقتادة. وفي القول الآخر لهما وهو قول يحيى بن سلام أنها مكية إلا عشر آيات من أولها، فإنها نزلت بالمدينة في شأن من كان من المسلمين بمكة. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: نزلت بين مكة والمدينة^(١). وهي تسع وستون آية^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿آلَهُ ۖ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۗ﴾^(١) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ۗ﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿آلَهُ ۖ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾^(٣) تقدم القول في أوائل السور. وقال ابن عباس: المعنى: أنا الله أعلم. وقيل: هو اسم للسورة. وقيل: اسم للقرآن.

﴿أَحْسِبَ﴾ استفهامٌ أريد به التقرير والتوبيخ، ومعناه الظن^(٤). ﴿أَنْ يُتْرَكُوا﴾ في موضع نصب بـ«أَحْسِبَ» وفيه وصلتها مقام المفعولين على قول سيبويه. و«أَنَّ» الثانية من «أَنْ يَقُولُوا» في موضع نصبٍ على إحدى جهتين، بمعنى: لأن يقولوا، أو: بأن يقولوا، أو: على أن يقولوا. والجهة الأخرى أن يكون على التكرير، والتقدير: ﴿آلَهُ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾ أحسبوا ﴿أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾^(٥). قال ابن عباس وغيره: يُريد بالناس قوماً من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يؤذونهم

(١) النكت والعيون ٢/٢٧٤.

(٢) الوسيط ٢/٤١٢ وتفسير البغوي ٣/٤٦٠.

(٣) في (م) ذكرت الآية بتمامها، والمثبت من باقي النسخ.

(٤) النكت والعيون ٤/٢٧٤.

(٥) إعراب القرآن ٣/٢٤٧.

وَيُعَذِّبُونَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، كَسَلْمَةَ بْنِ هِشَامٍ، وَعِيَّاشَ بْنَ أَبِي رَيْبَعَةَ، وَالْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَعَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ، وَيَاسِرَ أَبِيهِ، وَسُمَيَّةَ أُمَّهُ، وَعَدُوَّةَ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ وَغَيْرِهِمْ، فَكَانَتْ صُدُورُهُمْ تَضِيقُ لَذَلِكَ، وَرَبِمَا اسْتَنْكَرَ أَنْ يُمَكِّنَ اللَّهُ الْكُفْرَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؛ قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مَسْلِيَّةً وَمَعْلَمَةً أَنَّ هَذِهِ هِيَ سِيرَةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ اخْتِبَارًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِتْنَةً. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ^(١): وَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ نَزَلَتْ بِهَذَا السَّبَبِ أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ، فَهِيَ بَاقِيَةٌ فِي أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ، مَوْجُودٌ حُكْمُهَا بَقِيَّةَ الدَّهْرِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْفِتْنَةَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بَاقِيَةٌ فِي ثُغُورِ الْمُسْلِمِينَ بِالْأَسْرِ وَنَكَايَةِ الْعَدُوِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَإِذَا اعْتَبِرَ أَيْضًا كُلُّ مَوْضِعٍ فِيهِ ذَلِكَ بِالْأَمْرَاضِ وَأَنْوَاعِ الْمُحَنِّ، وَلَكِنِ الَّتِي تَشْبَهُ نَازِلَةَ الْمُسْلِمِينَ مَعَ قَرِيشٍ هِيَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَمْرِ الْعَدُوِّ فِي كُلِّ ثَغْرِ.

قلت: ما أحسن ما قاله، ولقد صدق فيما قال ﷺ. وقال مقاتل: نزلت في مهجع مولى عمر بن الخطاب؛ كان أول قتيل من المسلمين يوم بدر، رماه عامر بن الحضرمي بسهم فقتله، فقال النبي ﷺ يومئذ: «سيد الشهداء مهجع، وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة». فجزع عليه أبواه وامراته، فنزلت: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾^(٢). وقال الشعبي: نزل مفتتح هذه السورة في أناس كانوا بمكة من المسلمين، فكتب إليهم أصحاب النبي ﷺ من الحديدية أنه لا يقبل منكم إقرار الإسلام^(٣) حتى تهاجروا، فخرجوا، فأتبعهم المشركون فأذوهم، فنزلت فيهم هذه الآية ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾ فكتبوا إليهم: نزلت فيكم آية كذا. فقالوا: نخرج وإن اتبعنا أحد قاتلناه. فاتبعتهم المشركون فقاتلوهم، فمنهم من قتل، ومنهم من نجا، فنزل فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا﴾^(٤).

(١) في المحرر الوجيز ٤/٣٠٥، وما قبله منه ومن الوسيط ٣/٤١٢، وتفسير البغوي ٣/٤٦٠.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/٥٣٠، وتفسير البغوي ٣/٤٦٠.

(٣) في النسخ سوى (م): إقرار ولا إسلام، والمثبت من (م) والمصادر.

(٤) أخرجه الطبري ١٨/٣٥٨-٣٥٩، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٣١) وهو تفسير البغوي ٣/٤٦٠.

﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ يُمتحنون، أي: أظنّ الذين جَزَعُوا من أذى المشركين أن يُقْتَعَ منهم أن يقولوا: إنا مؤمنون، ولا يُمتحنون في إيمانهم وأنفسهم وأموالهم بما يتبين به حقيقة إيمانهم^(١)؟.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: ابتلينا الماضين، كالخليل ألقى في النار، وكقوم نُشِرُوا بالمناشير في دين الله فلم يرجعوا عنه^(٢). وروى البخاري^(٣) عن خَبَاب من الأرت: قالوا شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بردة له في ظل الكعبة، فقلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يُؤخذ الرجلُ فيحفرُ له في الأرض فيجعلُ فيها، فيجاء بالمنشارٍ فيوضعُ على رأسه فيجعلُ نصفين، ويمشطُ بأمشاط الحديد لحمه وعظمه، فما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمنّ الله^(٤) هذا الأمرَ حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت لا يخافُ إلا الله والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلون». وخرَجَ ابن ماجه^(٥) عن أبي سعيد الخدري قال: دخلتُ على النبي ﷺ وهو يُوعكُ، فوضعتُ يدي عليه، فوجدتُ حرّه بين يديّ فوق اللِّحاف. فقلتُ: يا رسول الله، ما أشدّها عليك! قال: «إنا كذلك يُضعفُ لنا البلاءُ ويُضعفُ لنا الأجر» قلت: يا رسول الله، أيُّ الناسِ أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء» قلت: ثمّ من؟ قال: «ثمّ الصالحون؛ أن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجدَ إلاّ العبادةَ يجوبها^(٦)، وأن كان أحدهم ليفرحُ بالبلاء كما يفرحُ أحدكم بالرخاء». وروى سعد بن

(١) الوجيز للواحدي على هامش مراح لبيد ١٥٢/٢ .

(٢) الوسيط ٤١٢/٣-٤١٣ .

(٣) في صحيحه (٣٨٥٢)، وهو في مسند أحمد (٢١٠٥٧).

(٤) في النسخ: والله ليتمنّ، والمثبت من صحيح البخاري.

(٥) في سننه (٤٠٢٤)، وهو في مسند أحمد (١١٨٩٣)، والأدب المفرد (٥١٠).

(٦) كذا في (م) وكذا ضبطها السندي في شرحه لابن ماجه ٤٩٠/٢ وقال: أي: يجعل لها جيئاً. والذي في النسخ الخطية ومطبوع ابن ماجه «يُجوبها». والتَّحْوِيَةُ فيما ذكر ابن الأثير في النهاية (حوا): أن يُديرَ كساءً حول ستام البعير ثم يركبه. قلنا: وهذا لا يناسب المعنى، فلعله «يجوبها» كما في المسند ومطبوع الأدب المفرد، فيكون المعنى كما قال السندي في حاشيته على المسند: أي: يقطعها ليلبسها في عقه.

أبي وقاصٍ قال: قلتُ: يا رسول الله، أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثلُ فالأمثلُ، يُبتلى الرجلُ على حسب دينه، فإن كان في دينه ضلُوباً اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقةً ابتلي على حسب دينه، فما يبرحُ البلاءُ بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة»^(١). وروى عبد الرحمن بن زيد أن عيسى عليه السلام كان له وزير، فركب يوماً، فأخذه السَّبُعُ فأكله، فقال عيسى: يا ربِّ وزييري في دينك، وعونِي على بني إسرائيل، وخليفتي فيهم، سلَّطْتُ عليه كلباً فأكله. قال: «نعم، كانت له عندي منزلةٌ رفيعةٌ لم أجدُ عملَه يبلغها فابتليته بذلك لأبلغه تلك المنزلة»^(٢). وقال وهب: قرأتُ في كتاب رجلٍ من الحواريين: إذا سُلِكَ بك سبيلُ البلاءِ فقرِّ عيناً، فإنه سُلِكَ بك سبيلُ الأنبياء والصالحين، وإذا سُلِكَ بك سبيلُ الرِّخاءِ فأبِكْ على نفسك، فقد حُولِفَ بك عن سبيلهم^(٣).

قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أي: فليبرين الله الذين صدقوا في إيمانهم. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»^(٤) وغيرها. قال الزجاج: ليعلم صدق الصادقِ بوقوعِ صدقهِ منه، وقد علم الصادقُ من الكاذبِ قبل أن يخلقهما، ولكن القصدُ قصدُ وقوعِ العلمِ بما يُجازى عليه^(٥). وإنما يعلم صدقُ الصادقِ واقعاً كائناً ووقوعه، وقد علم أنه سيقع. وقال النحاس^(٦): فيه قولان: أحدهما - أن يكون «صدَّقوا» مشتقاً من الصدقِ و«الكاذبين» مشتقاً من الكذبِ الذي هو ضدُّ الصدقِ، ويكون المعنى: فليبيننَّ الله الذي صدقوا فقالوا: نحن مؤمنون واعتقدوا مثل ذلك، والذين كذبوا حين اعتقدوا غير ذلك. والقول الآخر - أن يكون صدَّقوا مشتقاً من

(١) أخرجه أحمد (١٤٨١).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٧/٤٠٧.

(٣) أخرجه أحمد في الزهد ص ٧١.

(٤) ١٤٠/٣.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/١٦٠.

(٦) في إعراب القرآن ٣/٢٤٧-٢٤٨.

الصِّدْق: وهو الصُّلْب، والكاذبين مشتقاً من كَذَّب إذا انهزم، فيكون المعنى: فليعلمَنَّ الله الذي ثبتوا في الحرب والذين انهزموا، كما قال الشاعر:
لَيْتَ بِعَثْرٍ يَصْطَادُ الرِّجَالَ إِذَا مَا اللَّيْتُ كَذَّبَ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقًا^(١)
فجعل «لَيَعْلَمَنَّ» في موضع فليبينَّ مجازاً.

وقراءة الجماعة: «فَلْيَعْلَمَنَّ» بفتح الياء واللام، وقرأ علي بن أبي طالب بضم الياء وكسر اللام^(٢)، وهي تُبينُّ معنى ما قاله النحاس. ويَحْتَمِلُ ثلاثة معان: الأول - أن يُعْلِمَ في الآخرة هؤلاء الصادقين والكاذبين بمنازلتهم من ثوابه وعقابه وبأعمالهم في الدنيا، بمعنى: يُوقفهم على ما كان منهم. الثاني - أن يكون المفعول الأول محذوفاً تقديره: فليعلمَنَّ الناسَ والعالمَ هؤلاء الصادقين والكاذبين، أي: يفضحهم ويشهرهم؛ هؤلاء في الخبر، وهؤلاء في الشر، وذلك في الدنيا والآخرة. الثالث - أن يكون ذلك من العلامة، أي: يضع لكل طائفة علامةً يشتهر بها. فالآية على هذا تنظر إلى قول النبي ﷺ: «مَنْ أَسْرَسَ سِرِيرَةَ أَلْبَسَهُ اللَّهُ رِدَاءَهَا»^(٣).

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٦﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾
قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: الشرك. ﴿أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ أي:

(١) قائله زهير، وهو في ديوانه ص ٥٤. عثر: بلد في اليمن. معجم البلدان ٨٤/٤.

(٢) المحتسب ١٥٩/٢، والشاذة ص ١١٤ عن علي والزهري. وفي زاد المسير ٢٥٥/٦ عن علي وجعفر بن محمد.

(٣) المحرر الوجيز ٣٠٦/٤. والحديث أخرجه الطبراني في الكبير (١٧٠٢)، وفي الأوسط (٧٩٠٢) من حديث جندب بن سفيان ؓ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٢٥/١٠: فيه حامد بن آدم، وهو كذاب. وأخرجه الطبراني بنحوه ١٢٧/١٠ من حديث عثمان بن عفان ؓ. وفي إسناده سليمان بن أرقم، وهو متروك. ميزان الاعتدال ١٩٦/٢ وقال العجلوني في كشف الخفا ٣٥٠/٢: قيل: ليس بحديث، لكن معناه صحيح.

يفوتونا ويعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يفعلون. قال ابن عباس: يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وشيبة وعتبة والوليد بن عتبة وعقبة بن أبي معيط وحنظلة بن أبي سفيان والعاص بن وائل^(١). ﴿مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بشس الحكم ما حكموا في صفات ربهم أنه مسبوق والله القادر على كل شيء.

و«ما» في موضع نصب بمعنى ساء شيئاً أو حكماً يحكمون. ويجوز أن تكون «ما» في موضع رفع بمعنى ساء الشيء، أو الحكم حكمهم. وهذا قول الزجاج. وقد رها ابن كيسان تقديرين آخرين خلاف ذينك: أحدهما - أن يكون موضع «ما» [مع] «يَحْكُمُونَ» بمنزلة شيء واحد، كما تقول: أعجبني ما صنعت، أي: صنعك، ف«ما» والفعل مصدر في موضع رفع، التقدير: ساء حكمهم. التقدير: ساء حكمهم. والتقدير الآخر أن تكون «ما» لا موضع لها من الإعراب، وقد قامت مقام الاسم لساء، وكذلك نعم وبئس. قال أبو الحسن بن كيسان: وأنا أختار أن أجعل لـ«ما» موضعاً في كل ما أقدّر عليه، نحو قوله عز وجل: ﴿فِيمَا رَحِمُوا مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وكذا ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ﴾ [المائدة: ١٣] وكذا ﴿أَيَّامَ الْأَجَلِينَ قَضَيْتُ﴾ [القصص: ٢٨] «ما» في موضع خفض في هذا كله وما بعده تابع لها، وكذا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً﴾ [البقرة: ٢٦] «ما» في موضع نصب و«بَعُوضَةً» تابع لها^(٢).

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ «يرجو» بمعنى: يخاف، من قول الهذلي في وصف عسال:

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لِسْعَهَا^(٣)

وأجمع أهل التفسير على أن المعنى: من كان يخاف الموت فليعمل عملاً صالحاً

(١) الوسيط ٤١٣/٣ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن ٢٤٨/٣، وما بين حاصرتين منه. وقول الزجاج في معاني القرآن له ١٦٠/٤.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣٠٢/٤. وهذا صدر لبيت قائله أبو ذؤيب الهذلي، وعجزه: وخالفها في بيت نُوبٍ عوامل. وقد سلف ٤٣٣/٣.

فإنه لا بُدَّ أن يأتيه. ذكره النَّحَّاسُ^(١). قال الزَّجَّاجُ: معنى «يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ» ثواب الله^(٢)، و«من» في موضع رفع بالابتداء و«كَانَ» في موضع الخبر، وهي في موضع جزم بالشرط، و«يَرْجُو» في موضع خبر كان، والمجازاة ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ أي: وَمَنْ جَاهَدَ فِي الدِّينِ، وَصَبَرَ عَلَى قِتَالِ الْكُفَّارِ وَأَعْمَالِ الطَّاعَاتِ، فَإِنَّمَا يَسْعَى لِنَفْسِهِ، أي: ثَوَابُ ذَلِكَ كُلِّهِ لَهُ، وَلَا يَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ نَفْعٌ مِنْ ذَلِكَ. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفِيْرٌ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي: عَنْ أَعْمَالِهِمْ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى: مَنْ جَاهَدَ عَدُوَّهُ لِنَفْسِهِ لَا يَرِيدُ وَجْهَ اللَّهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ بِجِهَادِهِ.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: صَدَّقُوا. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لُكْفَرْنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: لِنُغْطِيْنَهَا عَنْهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ لَهُمْ. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بِأَحْسَنِ أَعْمَالِهِمْ وَهُوَ الطَّاعَاتِ. ثُمَّ قِيلَ: يَحْتَمِلُ أَنْ تُكْفَرَ عَنْهُمْ كُلُّ مَعْصِيَةٍ عَمِلُوهَا فِي الشَّرْكِ، وَيُثَابُوا عَلَى مَا عَمِلُوا مِنْ حَسَنَةٍ فِي الْإِسْلَامِ^(٤). وَيَحْتَمِلُ أَنْ تُكْفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتُهُمْ فِي الْكُفْرِ وَالْإِسْلَامِ، وَيُثَابُوا عَلَى حَسَنَاتِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَالْإِسْلَامِ.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ نزلت في سعد بن أبي وقاص فيما روى الترمذي قال: أنزلت في أربع آيات فذكر قصة؛ فقالت أم سعد: أليس قد أمر الله بالبر؟! والله لا أطمع طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر. قال: فكانوا إذا

(١) في إعراب القرآن ٣/٢٤٩.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/١٦٠.

(٣) إعراب القرآن ٣/٢٤٩.

(٤) مجمع البيان ٢٠/٣٤٠.

أرادوا أن يُطعموها شَجَرُوا فَاها^(١)، فنزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ الآية. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح^(٢). وَرُوِيَ عن سعدٍ أنه قال: كنتُ باراً بأمي فأسلمتُ، فقالت: لتدعَنَّ دينك أو لا آكلُ ولا أشربُ حتى أموتَ فتُعَيَّرَ بي، ويُقال: يا قاتِلَ أمِّه. وبقيت يوماً ويوماً فقلتُ: يا أمَّاه، لو كانت لكِ مثَةُ نفسٍ، فخرجتُ نفساً نفساً ما تركتُ ديني هذا، فإن شئتِ فكلِّي، وإن شئتِ فلا تأكلي. فلما رأته ذلك أكلتُ ونزلتُ: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾ الآية^(٣). وقال ابن عباس: نزلت في عيَّاش بن أبي ربيعة أخي أبي جهلٍ لأمِّه وقد فعلتُ أمَّهُ مثلَ ذلك^(٤). وعنه أيضاً: نزلت في جميع الأمة؛ إذ لا يصبر على بلاء الله إلا صديق.

و«حُسْنًا» نُصِبَ عند البصريين على التكرير، أي: ووصيناهُ حُسْنًا. وقيل: هو على القطع، تقديره: ووصيناهُ بالحُسن، كما تقول: وصَّيتهُ خيرًا، أي: بالخير. وقال أهل الكوفة: تقديره: ووصَّينا الإنسان أن يفعل حُسْنًا فيُقَدَّرُ له فعل. وقال الشاعر:

عَجِبْتُ مِنْ دَهْمَاءٍ إِذْ تَشْكُونَا وَمِنْ أَبِي دَهْمَاءٍ إِذْ يُوصِينَا
خَيْرًا بِهَا كَأَنَّمَا خَافُونَا

أي: يوصينا أن نفعلَ بها خيرًا، كقوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ [ص: ٣٣] أي: يمسحُ مَسْحًا. وقيل: تقديره: ووصَّيناهُ أمرًا ذا حُسنٍ، فأقيمتِ الصِّفَةُ مقامَ الموصوفِ، وحُذِفَ المضافُ وأُقيِمَ المضافُ إليه مقامه^(٥). وقيل: معناه: ألزمناهُ حُسْنًا^(٦).

(١) أي: أدخلوا في شجره عوداً حتى يفتحوه به، والشَّجْرُ: مفتح الفم. النهاية (شجر).

(٢) سنن الترمذي (٣١٨٩). وهو في مسند أحمد (١٦١٤)، وأخرجه مسلم بنحوه ١٨٧٨/٤ (٤٤).

(٣) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص ٣٥٧، والوسيط ٣/٤١٤، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٣١/٢٠.

(٤) المحرر الوجيز ٣٠٧/٤، وزاد المسير ٢٥٧/٦ من غير نسبة. وساق القصة الطبرسي في مجمع البيان ٣٣٩/٢٠ عن الكلبي.

(٥) تفسير الطبري ٣٦٢/١٨.

(٦) النكت والعيون ٢٧٦/٤ عن السدي.

وقراءة العامة: «حُسْنًا» بضمّ الحاء وإمكان السين. وقرأ أبو رجاء وأبو العالية والضحاك: بفتح الحاء والسين^(١). وقرأ الجحدري: «إحساناً» على المصدر، وكذلك في مصحف أبي^(٢)، التقدير: ووصينا الإنسان أن يُحسِنَ إليهما إحساناً^(٣)، ولا ينتصبُ بوصينا؛ لأنه قد استوفى مفعوليه.

﴿إِنَّ مَرْجِعَكُمْ﴾ وعيدٌ في طاعة الوالدين في معنى الكفر. ﴿فَأَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿ كَرَّرَ تَعَالَى التَّمثِيلَ بِحَالَةِ الْمُؤْمِنِينَ الْعَامِلِينَ لِتَحْرُكِ النُّفُوسِ إِلَى نَيْلِ مَرَاتِبِهِمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ مَبَالِغَةٌ عَلَى مَعْنَى: فَالَّذِينَ هُمْ فِي نَهَايَةِ الصَّلَاحِ وَأَبْعَدِ غَايَاتِهِ. وَإِذَا تَحَصَّلَ لِلْمُؤْمِنِ هَذَا الْحُكْمُ تَحَصَّلَ ثَمَرَتُهُ وَجَزَاؤُهُ وَهُوَ الْجَنَّةُ^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية نزلت في المنافقين كانوا يقولون: آمنا بالله ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ أي: أذاهم ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ في الآخرة، فارتدَّ عن إيمانه^(٥). وقيل: جزعٌ من ذلك كما يجزعُ من عذاب الله ولا يصبر على الأذى في الله^(٦). ﴿وَلَئِن جَاءَ﴾ المؤمنين ﴿نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ﴾ هؤلاء المرتدون: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ وهم كاذبون، فقال الله لهم: ﴿أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي

(١) الشاذة ص ١١٤ عن عيسى والجحدري، وزاد المسير ٢٥٦/٦ عن ابن مسعود وأبي رجاء.

(٢) المحرر الوجيز ٣٠٨/٤، وزاد المسير ٢٥٦/٦ ونسبها أيضاً إلى أبي مجلز، وهي قراءة شاذة.

(٣) إعراب القرآن ٢٤٩/٣.

(٤) المحرر الوجيز ٣٠٨/٤.

(٥) سيرد معناه قريباً عن الضحاك.

(٦) الوسيط ٤١٤/٣.

صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ يعني: الله أعلم بما في صدورهم منهم بأنفسهم. وقال مجاهد: نزلت في ناس كانوا يؤمنون بألستهم، فإذا أصابهم بلاءٌ من الله أو مصيبةٌ في أنفسهم افتتنوا^(١). وقال الضحَّاك: نزلت في ناسٍ من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون، فإذا أودوا رجعوا إلى الشرك^(٢). وقال عكرمة: كان قومٌ قد أسلموا فأكرههم المشركون على الخروج معهم إلى بدر، فقتل بعضهم، فأنزل الله: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أُنْفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٢٨] فكتبَ بها المسلمون من المدينة إلى المسلمين بمكة، فخرجوا، فلحقهم المشركون، فافتتن بعضهم، فنزلت هذه الآية فيهم^(٣). وقيل: نزلت في عيَّاش ابن أبي ربيعة؛ أسلم وهاجر، ثم أودي وضرب، فارتدَّ. وإنما عذبه أبو جهل والحارث وكانا أخويه لأمه. قال ابن عباس: ثم عاش بعد ذلك بدهرٍ وحسن إسلامه^(٤). ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ قال قتادة: نزلت في القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلَ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلْيَحِمْلُوا ثِقَلَهُمْ وَأَنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسَّ لَكُمْ يَوْمَ الْفِتْمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ أي: ديننا. ﴿وَلنَحْمِلَ خَطَايَكُمْ﴾ جزمٌ على الأمر^(٦). قال الفراء والزجاج: هو أمرٌ في تأويل

(١) أخرجه الطبري ١٨/٣٦٥، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٧١)، وهو في تفسير البغوي ٣/٤٦٢، وزاد المسير ٦/٢٥٩.

(٢) أخرجه الطبري ٨/٣٦٥، وهو في زاد المسير ٦/٢٥٩، ومجمع البيان ٢٠/٣٣٩.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/٩٥-٩٦ عن عكرمة. وأخرجه الطبري ١٨/٣٦٦، وابن أبي حاتم (١٧١٧٠) عن عكرمة عن ابن عباس.

(٤) زاد المسير ٦/٢٥٩، ومجمع البيان ٢٠/٣٣٩.

(٥) أخرجه الطبري ١٨/٣٦٦، وهو في تفسير البغوي ٣/٤٦٢، ومجمع البيان ٢/٣٣٩.

(٦) تفسير البغوي ٣/٤٦٢.

الشرط والجزاء، أي: إن تَتَّبِعُوا سَبِيلَنَا نَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ، كما قال:
 فقلْتُ ادْعِي وَأَدْعُ إِنَّ أُنْدَى لِيَصَوْتُ أَنْ يُنَادِيَ دَاعِيَانِ^(١)
 أي: إن دعوتِ دعوتُ^(٢). قال المهدوي: وجاء وقوع ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ بعده
 على الحمل على المعنى؛ لأنَّ المعنى: إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم. فلما كان
 الأمر يرجع في المعنى إلى الخبر وقع عليه التكذيب كما يوقع عليه الخبر. قال
 مجاهد: قال المشركون من قريش: نحن وأنتم لا نُبْعَثُ، فإن كان عليكم وزرٌ فعلينا.
 أي: نحن نحمل عنكم ما يلزمكم^(٣). والحمل هاهنا بمعنى الحَمَالَة لا الحمل على
 الظهر. ورُوي أنَّ قائل ذلك الوليدُ بن المغيرة^(٤).

﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ يعني: ما يحمل عليهم من سيئات من ظلموه
 بعد فراغ حسناتهم. روي معناه عن النبي ﷺ، وقد تقدّم في «آل عمران»^(٥). قال أبو
 أمانة الباهلي: «يؤتى بالرجل يوم القيامة وهو كثير الحسنات، فلا يزال يقتصر منه
 حتى تفنى حسناته، ثم يُطالب فيقول الله عزَّ وجلَّ: اقتصوا من عبدي. فتقول
 الملائكة: ما بقيت له حسنات. فيقول: أخذوا من سيئات المظلوم فاجعلوا عليه» ثم
 تلا رسولُ الله ﷺ: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾. وقال قتادة: من دعا إلى
 ضلالةٍ كان عليه وزرها ووزرُ من عملَ بها ولا يُنْقَصُ من أوزارهم شيء. ونظيره

(١) نسبه سيبويه في الكتاب ٤٥/٣ إلى الأعشى، ولم نقف عليه في ديوانه. ونُسب في شرح الفصل ٣٣/٧
 إلى ربيعة بن هشيم، وفي أمالي القالي ٩٠/٢ إلى الفرزدق، وفي المحرر الوجيز ٣٠٩/٤، واللسان
 (ندي) إلى دثار بن شيبان النمري.

(٢) إعراب القرآن ٢٤٩/٣-٢٥٠، وينظر معاني القرآن للفراء ٣١٤/٢، ومعاني القرآن للزجاج ١٦١/٤

(٣) معاني القرآن للنحاس ٢١٥/٥.

(٤) المحرر الوجيز ٣٠٩/٤.

(٥) ٣٩١/٥ - ٣٩٢.

قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]^(١). ونظير هذا قوله عليه السلام: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلِيهِ وَزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(٢) ورُوي من حديث أبي هريرة وغيره^(٣). وقال الحسن: قال النبي ﷺ: «مَنْ دَعَا إِلَى هَدًى فَاتَّبَعَ عَلَيْهِ وَعُمِلَ بِهِ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ اتَّبَعَهُ وَلَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أَجْرِهِمْ شَيْئاً، وَأَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ فَاتَّبَعَ عَلَيْهَا وَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ فَعَلِيهِ مِثْلُ أَوْزَارِ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِمَّنْ اتَّبَعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئاً» ثم قرأ الحسن: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَالَهُمْ مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾^(٤).

قلت: هذا مرسل، وهو معنى حديث أبي هريرة. خرَّجه مسلم^(٥). ونص حديث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ فَاتَّبَعَ فَإِنَّ لَهُ مِثْلَ أَوْزَارِ مَنْ اتَّبَعَهُ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئاً، وَأَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى هَدًى فَاتَّبَعَ فَإِنَّ لَهُ مِثْلَ أَجْرِ مَنْ اتَّبَعَهُ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِهِمْ شَيْئاً» خرَّجه ابن ماجه في السنن^(٦). وفي الباب عن أبي جحيفة وجريير^(٧). وقد قيل: إن المراد أعوان الظلمة. وقيل: أصحاب البدع إذا اتبعوا عليها. وقيل: محدثو السنن الجائرة إذا عمل بها من بعدهم^(٨). والمعنى متقارب، والحديث يجمع ذلك كله.

(١) معاني القرآن للنحاس ٢١٦/٥-٢١٧. وحديث أبي أمامة ؓ أخرجه بنحوه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٨٦). وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٩٦/٢.

(٢) أخرجه أحمد (١٩١٧٤)، ومسلم (١٠١٧) من حديث جريير بن عبد الله ؓ. وقد سلف ٣٣٦/٣.

(٣) كما سيأتي قريباً.

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور ١٤٣/٥ إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) في صحيحه (٢٦٧٤)، وهو في مسند أحمد (٩١٦٠).

(٦) برقم (٢٠٥).

(٧) حديث أبي جحيفة ؓ أخرجه ابن ماجه (٢٠٧)، وحديث جريير ؓ سلف آنفاً.

(٨) النكت والعيون ٢٧٨/٤. وفي (د) و(م): السنن الحادثة. وفي (ظ): الجارية.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ذكر قصة نوح تسلياً لنبية ﷺ، أي: ابتلي النبيون قبلك بالكفار فصبروا. وخصَّ نوحاً بالذكر، لأنه أوَّل رسولٍ أُرسلَ إلى أهل (١) الأرض وقد امتلأت كفراً على ما تقدّم بيانه في «هود» (٢). وأنه لم يلقَ نبياً من قومه ما لقيَ نوحٌ على ما تقدّم في «هود» عن الحسن. وروى عن قتادة عن أنس أن النبي ﷺ قال: «أوَّلُ نبيِّ أُرسلَ نوح» (٣) قال قتادة: وبعث من الجزيرة (٤). واختلّف في مبلغ عمره، فقيل: مبلغ عمره ما ذكره الله تعالى في كتابه. قال قتادة: لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلاث مئة سنة، ودعاهم ثلاث مئة سنة، ولبث بعد الطوفان ثلاث مئة وخمسين سنة (٥). وقال ابن عباس: بُعث نوحٌ لأربعين سنة، ولبث في قومه ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الغرق ستين سنةً حتى كثر الناس وفسّوا (٦). وعنه أيضاً: أنه بُعث وهو ابن مئتين وخمسين سنة، ولبث فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً (٧)، وعاش بعد الطوفان مئتي سنة. وقال وهب: عُمر نوح ألفاً وأربع مئة سنة. وقال كعب الأخبار: لبث نوحٌ في قومه ألف سنةٍ إلا خمسين

(١) كلمة أهل من (ظ).

(٢) ١٢٩/١١.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠٤٧٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٢/٢٤٣. وأخرجه بنحوه أحمد (١٢١٥٣)، والبخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣) من طريق قتادة أيضاً، به.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٦٢٢) و(١٠٤٧٨) و(١٠٥٠٣).

(٥) النكت والعيون ٤/٢٧٨. وقول قتادة أخرجه ابن أبي حاتم (١٧١٩٦).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/٦١، وابن أبي حاتم (١٧١٩٤)، والواحدي في الوسيط ٣/٤١٥. وهو في النكت والعيون ٤/٢٧٨-٢٧٩. وسلف ٩/٢٥٩.

(٧) كلمة عاماً من (ظ).

عاماً، وعاش بعد الطوفان سبعين عاماً، فكان مبلغ عمره ألف سنة وعشرين عاماً^(١). وقال عون بن أبي شداد: بُعث نوحٌ وهو ابن خمسين وثلاث مئة سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ثلاث مئة سنة وخمسين سنة، فكان مبلغ عمره ألف سنة وست مئة سنة وخمسين سنة^(٢). ونحوه عن الحسن؛ قال الحسن: لَمَّا أتى ملك الموت نوحاً ليقبض روحه قال: يا نوح، كم عشت في الدنيا؟ قال: ثلاث مئة قبل أن أبعث، وألف سنة إلا خمسين عاماً في قومي، وثلاث مئة سنة وخمسين سنة بعد الطوفان. قال ملك الموت: فكيف وجدت الدنيا؟ قال نوح: مثل دارٍ لها بابان، دخلتُ من هذا وخرجتُ من هذا^(٣). ورُوي من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا بعث الله نوحاً إلى قومه بعثه وهو ابن خمسين ومثي سنة، فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وبقي بعد الطوفان خمسين ومثي سنة، فلَمَّا أتاه ملك الموت قال: يا نوح، يا أكبر الأنبياء، ويا طويل العمر، ويا مُجاب الدعوة، كيف رأيت الدنيا؟ قال: مثل رجل بُني له بيت له بابان، فدخل من واحد وخرج من الآخر» وقد قيل: «دخل من أحدهما وجلس هنيهة، ثم خرج من الباب الآخر»^(٤). وقال ابن الوردي^(٥): «بني نوح بيتاً من قصب، فقيل له: لو بنيت غير هذا. فقال: هذا كثير لمن يموت»^(٦). وقال أبو المهاجر: لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً في بيت من شعر، فقيل له: يا نبي الله، ابن بيتاً. فقال: أموت اليوم^(٧)، أموت

(١) النكت والعيون ٢٧٩/٤.

(٢) أخرجه الطبري ٣٧٠/١٨، وابن أبي حاتم (١٧١٩٨). وهو في النكت والعيون ٢٧٩/٤، وسلف مختصراً ٢٥٩/٩.

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٨١/١٢.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٢٩)، وابن عساكر ٢٨١/٦٣.

(٥) في (د) و(م): الورد، والتصويب من (ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في الصادر، واسمه وهب بن الورد.

(٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٤٥/٨، والبيهقي في الشعب (١٠٧٥١)، وابن عساكر ٢٨٠/٦٢.

(٧) بعدها في (م) كلمة أو، وهي ليست في النسخ الخطية ولا في المصادر.

غداً^(١). وقال وهب بن مُنَبِّه: مرَّت بنوحٍ خمسُ مئة سنةٍ لم يقربِ النساءَ وجلاً من الموت^(٢). وقال مقاتل وجُوَيْر: إنَّ آدمَ عليه السلام حين كَبِرَ ورقَّ عظمُه قال: يا ربِّ إلى متى أكُدُّ وأسعى؟ قال: يا آدم، حتى يولِّدَ لك ولَدٌ مختون. فولِّدَ له نوحٌ بعد عشرة أبطنٍ، وهو يومئذُ ابنُ ألف سنةٍ إلا ستين عاماً. وقال بعضهم: إلا أربعين عاماً. والله أعلم. فكان نوح بن لامك بن متوشلخ بن إدريس وهو أخنوخ بن يرد بن مهلايل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم. وكان اسمُ نوحٍ السكن. وإنما سُمِّي السكن؛ لأنَّ الناس بعد آدم سكنوا إليه، فهو أبوهم^(٣). وولِّدَ له سامٌ وحامٌ ويافث، فولِّدَ سامٌ العربَ وفارسَ والروم، وفي كلِّ هؤلاء خير، وولِّدَ حامٌ القبطَ والسودانَ والبربر. وولِّدَ يافثُ التركَ والصقالبةَ وأجوجَ ومأجوج. وليس في شيء من هؤلاء خير^(٤). وقال ابن عباس: في ولد سامٍ بياضٌ وأدمة، وفي ولدِ حامٍ سوادٌ وبياضٌ قليل. وفي ولدِ يافث - وهم الترك والصقالبة - الصُّفرةُ والحُمرة. وكان له ولدٌ رابعٌ وهو كنعان الذي غرق، والعرب تسميه يام^(٥). وسُمِّي نوحٌ نوحاً لأنه نأخ على قومه ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى الله تعالى، فإذا كفروا بكى ونأخ عليهم^(٦). وذكر القشيري أبو القاسم عبد الكريم في كتاب «التخيير» له: يُروى أنَّ نوحاً عليه السلام كان اسمه يشكر، ولكن لكثرة بكائه على خطيئته أوحى الله إليه: يا نوح، كم تنوح؟ فسُمِّي نوحاً، فقيل: يا رسول الله، فأبى شيءٌ كانت خطيئته؟ فقال: «إنَّه مرَّ بكلِّ

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (١٠٧٥٠)، وابن عساكر ٢٢/٢٨٠.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٤/٣٩، وابن عساكر ٢٢/٢٨٠.

(٣) أخرجه ابن عساكر ٦٢/٢٤٢.

(٤) أخرجه البزار (كشف الأستار) (٢١٨)، وابن عدي ٧/٢٧٢٥ من طريق محمد بن يزيد بن سنان، عن أبيه، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة مرفوعاً. محمد بن يزيد بن سنان وأبوه ضعيفان. ميزان الاعتدال ٤/٦٩ و٤٢٧.

(٥) أخرجه ابن سعد ١/٤٠-٤١ عن هشام بن السائب الكلبي، عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس ؓ. هشام بن السائب وأبوه متروكان.

(٦) هو تمة قول مقاتل وجوير الأنف الذكر.

فقال في نفسه: ما أقبحه! فأوحى الله إليه: اخُلِّقْ أَنْتَ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا». وقال يزيد الرِّقَاشِي: إِنَّمَا سُمِّيَ نُوحًا لَطُولَ مَا نَاحَ عَلَى نَفْسِهِ^(١). فَإِنْ قِيلَ: فَلِمَ قَالَ: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ولم يقل: تسع مئة وخمسين عاماً؟ ففيه جوابان: أحدهما - أَنَّ المقصودَ به تكثيرُ العدد، فكان ذِكْرُهُ الألفَ أكثرَ في اللفظ وأكثرَ في العدد. الثاني - ما رُوي أَنَّهُ أُعْطِيَ مِنَ العَمْرِ أَلْفَ سَنَةٍ، فَوَهَبَ مِنْ عَمْرِهِ خَمْسِينَ سَنَةً لِبَعْضِ وَلَدِهِ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ رَجَعَ فِي اسْتِكْمَالِ الألفِ، فَذَكَرَ اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ تَنْبِيهاً عَلَى أَنَّ النَّقِیصَةَ كَانَتْ مِنْ جِهَتِهِ ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبیر وقتادة: المطر. الضحَّاك: الغرق. وقيل: الموت. رَوَتْهُ عائِشةُ رضي الله عنها عن النبي ﷺ. ومنه قول الشاعر:

أفناهم طوفان موت جارف^(٢)

قال النحَّاس^(٣): يُقال لكلِّ كثيرٍ مُطِيفٍ بالجميع من مطرٍ أو قتلٍ أو موتٍ: طوفان.

﴿وَهُمْ ظَلِمُونَ﴾ جملة في موضع الحال و«ألف سنة» منصوبٌ على الظرف «إلا خمسين عاماً» منصوبٌ على الاستثناء من الموجب. وهو عند سيويه بمنزلة المفعول؛ لأنه مستغنى عنه كالمفعول. فأما المبرد أبو العباس محمد بن يزيد فهو عنده مفعولٌ مَحْضٌ. كأنك قلت: استثنيتُ زيداً^(٤).

تنبيه - روى حسان بن غالب بن نجیح أبو القاسم المصري، حدثنا مالك بن أنس، عن الزُّهريِّ، عن ابن المسيَّب، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٦٢٦) و(١٥٧٦٥)، وأبو نعيم في الحلية ٣/٥١، وابن عساكر ٢٤١/٦٢.

(٢) النكت والعيون ٤/٢٧٨-٢٧٩. وقول الضحَّاك أخرجه الطبري ١٨/٣٧١، وابن أبي حاتم (١٧٢٠٢). وحديث عائشة رضي الله عنها أخرجه ابن أبي حاتم أيضاً (١٧١٩٩).

(٣) في معاني القرآن ٥/٢١٧.

(٤) إعراب القرآن ٣/٢٥٠ و٢٥٢.

«كان جبريلُ يُذاكرني فَضَلَ عمرَ، فقلتُ: يا جبريلُ، ما بَلَغَ فضلُ عمر؟ قال لي: يا محمد، لو لبثتُ معكَ ما لبثتُ نوحَ في قومه ما بَلَغْتُ لكَ فضلَ عمر» ذكره الخطيب أبو بكر أحمد بن ثابت البغدادي، وقال: تفرَّدَ بروايته حسان بن غالب عن مالك، وليس بثابتٍ من حديثه^(١).

قوله تعالى: ﴿فَأَبْجَيْنَهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ﴾ معطوف على الهاء^(٢). ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ الهاء والألف في «جَعَلْنَاهَا» للسفينة، أو للعقوبة، أو للنجاة؛ ثلاثة أقوال^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ هَبْنَا دُفُوفَ الْأَنْبِيَاءِ لِقَوْمِهِمْ فِي يَوْمٍ ذُو عُنُقٍ وَذَكَرَ حَيْرَانَ لَوْ تَبَدَّلَ الْأَنْبِيَاءُ آيَاتٍ لَقَبَّلْنَا الْكُفْرَانَ وَجَعَلْنَا لِكُلِّ قَوْمٍ نَبِيًّا لِيُبَيِّنَ لَهُمْ آيَاتِنَا وَيُصَلِّحَ صَدْرَهُمْ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَيُؤْتِيهِمُ اللَّهُ مِمَّا يُرِيدُ مِثْقَاتًا لَئِن كَانُوا يَلْقَوْنَ رَبَّهُمْ فَقَدْ أَعْلَمُوا بِآيَاتِنَا وَلَقَدْ آتَيْنَا نُوْحًا كُلَّ شَيْءٍ بِحَقٍّ وَإِذْ هَبْنَا دُفُوفَ الْأَنْبِيَاءِ لِقَوْمِهِمْ فِي يَوْمٍ ذُو عُنُقٍ وَذَكَرَ حَيْرَانَ لَوْ تَبَدَّلَ الْأَنْبِيَاءُ آيَاتٍ لَقَبَّلْنَا الْكُفْرَانَ وَجَعَلْنَا لِكُلِّ قَوْمٍ نَبِيًّا لِيُبَيِّنَ لَهُمْ آيَاتِنَا وَيُصَلِّحَ صَدْرَهُمْ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَيُؤْتِيهِمُ اللَّهُ مِمَّا يُرِيدُ مِثْقَاتًا لَئِن كَانُوا يَلْقَوْنَ رَبَّهُمْ فَقَدْ أَعْلَمُوا بِآيَاتِنَا وَلَقَدْ آتَيْنَا نُوْحًا كُلَّ شَيْءٍ بِحَقٍّ وَإِذْ هَبْنَا دُفُوفَ الْأَنْبِيَاءِ لِقَوْمِهِمْ فِي يَوْمٍ ذُو عُنُقٍ وَذَكَرَ حَيْرَانَ لَوْ تَبَدَّلَ الْأَنْبِيَاءُ آيَاتٍ لَقَبَّلْنَا الْكُفْرَانَ وَجَعَلْنَا لِكُلِّ قَوْمٍ نَبِيًّا لِيُبَيِّنَ لَهُمْ آيَاتِنَا وَيُصَلِّحَ صَدْرَهُمْ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَيُؤْتِيهِمُ اللَّهُ مِمَّا يُرِيدُ مِثْقَاتًا لَئِن كَانُوا يَلْقَوْنَ رَبَّهُمْ فَقَدْ أَعْلَمُوا بِآيَاتِنَا وَلَقَدْ آتَيْنَا نُوْحًا كُلَّ شَيْءٍ بِحَقٍّ

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ هَبْنَا دُفُوفَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ قال الكسائي: «وإبراهيم» منصوبٌ بـ«أنجيناً» يعني أنه معطوفٌ على الهاء. وأجاز الكسائي أن يكون معطوفاً على نوح، والمعنى: وأرسلنا إبراهيم. وقول ثالث: أن يكون منصوباً بمعنى: واذكر إبراهيم^(٤). ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: أفردوه بالعبادة. ﴿وَأَتَّقُوهُ﴾ أي: اتقوا عقابه وعذابه. ﴿ذَلِكُمْ حَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: من عبادة الأوثان. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٥).

(١) وأخرجه الدارقطني في غرائب مالك كما في لسان الميزان ١٨٩/٢، وتمام الرازي في فوائده (١٤٦٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٣٧/٤٤-١٣٨ من طريق الفتح بن نصر، عن حسان بن غالب، به. قال الدارقطني: هذا لا يصح عن مالك، وفتح وحسان ضعيفان، وهذا الحديث موضوع.

(٢) إعراب القرآن ٣/٢٥٢.

(٣) المحرر الوجيز ٤/٣١٠.

(٤) إعراب القرآن ٣/٢٥٢.

(٥) زاد المسير ٦/٢٣٦.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوتَانًا﴾ أي: أصناماً^(١). قال أبو عبيدة: الصنم: ما يُتخذ من ذهبٍ أو من فضةٍ أو نحاس، والوثن: ما يُتخذ من جصٍّ أو حجارة^(٢). الجوهرى: الوثن: الصنم والجمع وثنٌ وأوتانٌ، مثل أسدٍ وآساد^(٣). ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ قال الحسن: معنى «تَخْلُقُونَ»: تنحتون^(٤). فالمعنى: إنما تعبدون أوتاناً وأنتم تصنعونها^(٥). وقال مجاهد: الإفك: الكذب^(٦). والمعنى: تعبدون الأوتان وتخلقون الكذب^(٧). وقرأ أبو عبد الرحمن: «وَتَخْلُقُونَ»^(٨). وقرئ: «تُخْلِقُونَ» بمعنى الكثير من خَلَقَ و«تَخْلُقُونَ» من تَخَلَّقَ بمعنى تَكَذَّبَ وتخرَّص. وقرئ: «أفكاً» وفيه وجهان: أن يكون مصدرًا نحو كذبٍ ولعب، والإفك مخففاً منه كالكذب واللعب. وأن يكون صفةً على فعلٍ أي خَلِقًا أفكًا، أي: ذا إفكٍ وباطل^(٩). و«أوتاناً» نصبٌ بـ«تَعْبُدُونَ» و«ما» كافة. ويجوز في غير القرآن رفعُ أوتانٍ على أن تُجَعَلَ «ما» اسماً؛ لأنَّ «تَعْبُدُونَ» صلته، وحذفتِ الهاء لطول الاسم، وجعلَ أوتانَ خبر إنَّ. فأما «وتَخْلُقُونَ إفكاً» فهو منصوبٌ بالفعل لا غير^(١٠). وكذا ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ أي: اصرفوا رغبتكم في أرزاقكم إلى الله، فإياه فاسألوه وحده دون غيره.

(١) معاني القرآن للزجاج ١٦٥/٤. ونسبه في زاد المسير ٢٦٤/٦ إلى مقاتل. وأخرجه الطبري ٣٧٣/١٨، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٢١٠) عن قتادة.

(٢) مجاز القرآن ١١٤/٢ مختصراً.

(٣) الصحاح (وثن).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٩٦/٢.

(٥) معاني القرآن للزجاج ١٦٥/٤.

(٦) أخرجه الطبري ٣٧٤/١٨.

(٧) المحرر الوجيز ٣١١/٤ بنحوه.

(٨) معاني القرآن للفراف ٣١٥/٢، والمحتسب ١٦٠/٢ وزاد نسبتها إلى زيد بن علي، والشاذة ص ١١٤ وزاد نسبتها إلى علي بن أبي طالب وابن الزبير، والمحرر الوجيز ٣١١/٤ وزاد نسبتها إلى عون العقيلي وقاتدة وابن أبي ليلى.

(٩) الكشاف ٢٠١/٣. وقراءة: «تُخْلِقُونَ» لم تقف عليها عند غير المصنّف، وهي قراءة شاذة. وقراءة: «أفكاً» في المحتسب ١٦٠/٢ عن فضيل بن مرزوق وابن الزبير، والشاذة ص ١١٤ عن ابن الزبير.

(١٠) إعراب القرآن ٢٥٢-٢٥٣/٣.

﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ فقيل: هو من قول^(١) إبراهيم أي

التكذيب عادة الكفار وليس على الرسل إلا التبليغ.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ قراءة العامة بالياء على الخبر

والتوبيخ لهم، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. قال أبو عبيد: لذكر الأمم، كأنه

قال: أولم ير الأمم كيف. وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وثاب وحمزة والكسائي:

«تَرَوْا» بالياء خطاباً؛ لقوله: ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا﴾^(٢). وقد قيل: ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا﴾ خطابٌ

لقريش ليس من قول إبراهيم. ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يعني الخلق والبعث. وقيل: المعنى: أو

لم يروا كيف يُبْدِئُ الله الثمارَ فتحيا، ثم تفتنى، ثم يُعيدُها أبدأً. وكذلك يبدأ خلق

الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولداً، وخلق من الولد ولداً، وكذلك سائر

الحيوان. أي: فإذا رأيتم قدرته على الإبداء والإيجاد فهو القادر على الإعادة ﴿إِنَّ

ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لأنه إذا أراد أمراً قال له: كُنْ فيكون.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ

النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ

وإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنشَأَ بِمُعْجِزَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن

دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ

يَسُوءُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ

قَالُوا افْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا

لَكُم مِّن نَّصِيرٍ ﴿٣١﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: قل لهم يا محمد: سيروا في الأرض

(١) في (م): قوله. والمثبت من النسخ الخطية.

(٢) قراءة حمزة والكسائي وأبو بكر في المشهور عنه عن عاصم في السبعة ص ٤٩٨، والتيسير ص ١٧٣.

﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكم؛ لتعلموا بذلك كمال قدرة الله. ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ وقرأ أبو عمرو وابن كثير: «النَّشْأَةَ» بفتح الشين^(١)، وهما لغتان مثل الرأفة والرأفة وشبهه^(٢). الجوهري: أنشأه الله خلقه، والاسم النَّشْأَةُ، والنَّشْأَةُ بالمد عن أبي عمرو بن العلاء^(٣). ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: بعدله. ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: بفضله. ﴿وَالِلَّهِ تُقَابُوتٌ﴾ ترجعون وتُردُّون^(٤).

﴿وَمَا أَنشَأَ بِمُعْجِزَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ قال الفراء: معناه: ولا من في السماء بمعجزين الله. وهو غامض في العربية؛ للضمير الذي لم يظهر في الثاني، وهو كقول حسان^(٥):

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءٌ
أَرَادَ: وَمَنْ يَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءٌ، فَأَضْمَرَ مَنْ^(٦). وقاله عبد الرحمن بن زيد^(٧).
ونظيره قوله سبحانه: ﴿وَمَا مِثْلًا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصفات: ١٦٤] أي: من له.
والمعنى: إن الله لا يُعْجِزُهُ أَهْلُ الْأَرْضِ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَهْلُ السَّمَاءِ إِنْ عَصَوْهُ. وقال
قُطْرُبُ: ولا في السماء لو كنتم فيها، كما تقول: لا يفوتني فلان بالبصرة ولا هاهنا،
بمعنى: لا يفوتني بالبصرة لو صار إليها. وقيل: لا يستطيعون هرباً في الأرض ولا في

(١) السبعة ص ٤٩٨، والتيسير ص ١٧٣.

(٢) المحرر الوجيز ٣١١/٤.

(٣) الصحاح (نشأ).

(٤) تفسير البغوي ٤٦٤/٣.

(٥) في ديوانه ص ٦٤.

(٦) معاني القرآن للفراء ٣١٥/٢.

(٧) المحرر الوجيز ٣١٢/٤.

السماء^(١). وقال المبرّد: والمعنى: ولا مَنْ في السماء، على أَنَّ مَنْ ليست موصولةً ولكن تكون نكرةً، و«في السَّمَاءِ» صفةٌ لها، فأقيمت الصفةُ مقامَ الموصوف. وردَّ ذلك عليّ بن سليمان، وقال: لا يجوز. وقال: إِنَّ مَنْ إذا كانت نكرةً فلا بُدَّ مِنْ وَصْفِهَا، فصِفْتُهَا كَالصَّلَةِ، ولا يجوز حذفُ الموصولِ وتركُ الصلّة؛ قال: والمعنى: إِنَّ النَّاسَ حُوطَبُوا بما يعقلون، والمعنى: لو كنتم في السماء ما أعجزتُم الله، كما قال: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]^(٢). ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ويجوز «نَصِيرٌ» بالرفع على الموضع، وتكون «مِنْ» زائدة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَائِبَتِ اللَّهُ وَلِقَائِهِ﴾ أي: من الجنة، ونسب اليأس إليهم والمعنى: أويسوا. وهذه الآيات اعتراضٌ من الله تعالى تذكيراً وتحذيراً لأهل مكة. ثم عاد الخطاب إلى قصة إبراهيم فقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ حين دعاهم إلى الله تعالى ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتْلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ ثم اتفقوا على تحريقه ﴿فَأَنجَنَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ أي: من إذايتها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في إنجائه من النار العظيمة حتى لم تحرقه بعد ما ألقى فيها ﴿لَايَتٍ﴾.

وقراءة العامة: «جَوَابٌ» بنصب الباء على أنه خبر كان و «أَنْ قَالُوا» في محلّ الرفع اسم كان. وقرأ سالم الأفظس وعمرو بن دينار: «جَوَابٌ» بالرفع إلى أنه اسم «كان» و«أَنْ» في موضع الخبر نصباً^(٣).

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّمَا أَخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وقرأ حفص وحمزة: «مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ». وابن كثير وأبو عمرو والكسائي: «مَوَدَّةٌ»

(١) قول قطرب وما بعده في تفسير البغوي ٤٦٤/٣ .

(٢) إعراب القرآن ٣/٢٥٣ .

(٣) إعراب القرآن ٣/٢٥٣ ، والمحذر الوجيز ٣١٢/٤ . ونسبة قراءة الرفع إلى عمرو بن دينار لم ننف

عليها إلا عند المصنف، وهي قراءة شاذة.

بَيْنَكُمْ»^(١). والأعشى عن أبي بكر عن عاصم وابن وثاب والأعمش: «مَوَدَّةٌ بَيْنَكُمْ»^(٢).
 الباقر. «مَوَدَّةٌ بَيْنَكُمْ». فأما قراءة ابن كثير ففيها ثلاثة أوجه، ذكر الزجاج منها
 وجهين: أحدهما - أن المودة ارتفعت على خبر إن، وتكون «ما» بمعنى الذي.
 والتقدير: إن الذي اتخذتموه من دون الله أوثاناً مودةً بينكم. والوجه الآخر: أن يكون
 على إضمار مبتدأ، أي: هي مودةٌ، أو تلك مودةٌ بينكم. والمعنى: آلهتكم أو
 جماعتكم مودةٌ بينكم^(٣). قال ابن الأنباري: «أو ثاناً» وقفٌ حسنٌ لمن رفع المودةَ
 بإضمار ذلك مودةً بينكم، ومن رفع المودةَ على أنها خبر إن لم يقف^(٤). والوجه
 الثالث الذي لم يذكره أن يكون «مَوَدَّةٌ» رفعا بالابتداء و«فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» خبره؛ فأما
 إضافة «مَوَدَّةٌ» إلى «بَيْنَكُمْ» فإنه جعل «بَيْنَكُمْ» اسماً غير ظرف، والنحويون يقولون:
 جعله مفعولاً على السعة. وحكى سيويه: يا سارق الليلة أهل الدار. ولا يجوز أن
 يُضاف إليه وهو ظرف؛ لعلّة ليس هذا موضع ذكورها. ومن رفع «مَوَدَّةٌ» ونونها فعلى
 معنى ما ذكر، و«بَيْنَكُمْ» بالنصب ظرفاً^(٥). ومن نصب «مَوَدَّةٌ» ولم ينونها جعلها مفعولةً
 بوقوع الاتخاذ عليها، وجعل «إنما» حرفاً واحداً ولم يجعلها بمعنى الذي^(٦). ويجوز
 نصبُ المودةِ على أنه مفعولٌ من أجله، كما تقول: جئتُك ابتغاءَ الخير، وقصدتُ
 فلاناً مودةً له. «بينكم» بالخفض^(٧). ومن نَوَّنَ «مَوَدَّةٌ» ونصبها فعلى ما ذَكَرَ «بَيْنَكُمْ»

(١) السبعة ص ٤٩٨-٤٩٩، والتيسير ص ١٧٣.

(٢) رواية الأعشى عن أبي بكر عن عاصم في الشاذة ص ١١٥، والمشهور في رواية أبي بكر عن عاصم:
 «مودةٌ بينكم»، وهي قراءة نافع وابن عامر أيضاً. السبعة ص ٤٩٩، والتيسير ص ١٧٣. قلنا: وقد نسب
 ابن الجوزي تلك القراءة الشاذة في زاد المسير ٦/٢٦٧ إلى ابن عباس وسعيد بن المسيب وعكرمة وابن
 أبي عبله.

(٣) إعراب القرآن ٣/٢٥٤، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/١٦٧.

(٤) إيضاح الوقف والابتداء ٢/٨٢٧.

(٥) إعراب القرآن ٣/٢٥٤. وقول سيويه في الكتاب ١/١٧٥.

(٦) المحرر الوجيز ٤/٣١٣.

(٧) إعراب القرآن ٣/٢٥٤.

بالنصب من غير إضافة^(١). قال ابن الأنباري: ومن قرأ: «مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ» و«مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ» لم يقف على الأوثان، ووقف على «الحياة الدنيا»^(٢). ومعنى الآية: جعلتم الأوثان تحابون عليها وعلى عبادتها في الحياة الدنيا ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ تتبرأ الأوثان من عبادةها والرؤساء من السفلة^(٣)، كما قال الله عز وجل: ﴿الْأَجَلَاءُ يَوْمَئِذٍ بِبَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. ﴿وَمَا أَوْلِيكُمْ النَّارُ﴾ هو خطاب لعبدة الأوثان الرؤساء منهم والأنباع. وقيل: تدخل فيه الأوثان، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

قوله تعالى: ﴿فَقَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٤) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَأَتَيْنَاهُ آجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَقَامَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ ولوط أول من صدق إبراهيم حين رأى النار عليه برداً وسلاماً^(٤). قال ابن إسحاق: آمن لوط بإبراهيم وكان ابن أخته، وآمنت به سارة وكانت بنت عمه^(٥). ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ قال النخعي وفتادة: الذي قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ هو إبراهيم عليه السلام^(٦). قال فتادة: هاجر من كوثر وهي قرية من سواد الكوفة إلى حران ثم إلى الشام، ومعه ابن أخيه لوط بن هاران بن تارخ، وامراته سارة^(٧). قال الكلبي: هاجر من أرض حران إلى فلسطين، وهو أول من هاجر من أرض الكفر. قال مقاتل: هاجر إبراهيم وهو ابن خمس وسبعين سنة^(٨).

(١) المحرر الوجيز ٣١٣/٤.

(٢) إيضاح الوقف والابتداء ٨٢٧/٢.

(٣) تفسير البغوي ٤٦٥/٣.

(٤) تفسير أبي الليث ٥٣٥/٢.

(٥) النكت والعيون ٢٨١/٤.

(٦) المحرر الوجيز ٣١٤/٤.

(٧) النكت والعيون ٢٨١/٤، وتفسير البغوي ٤٦٦/٣.

(٨) تفسير البغوي ٤٦٦/٣.

وقيل: الذي قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ لوط عليه السلام^(١). ذكر البيهقي عن قتادة قال: أَوْلُ مَنْ هَاجَرَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَهْلِهِ عَثْمَانُ بْنُ عَفَانَ رضي الله عنه. قال قتادة: سمعت النَّضْرَ بْنَ أَنَسٍ يَقُولُ: سمعتُ أبا حمزة يعني أنس بن مالك يقول: خرج عثمان بن عفان ومعه رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة، فأبطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهم، فقدمت امرأة من قريش فقالت: يا محمد، رأيتُ حَتَنَكَ ومعه امرأته. قال: «على أيِّ حالٍ رأيتهما؟» قالت: رأيتُه وقد حملَ امرأته على حمارٍ من هذه الدَّبَابَةِ^(٢) وهو يسوقها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «صحبهما الله، إنَّ عَثْمَانَ لَأَوَّلُ مَنْ هَاجَرَ بِأَهْلِهِ بعد لوط» قال البيهقي: هذا في الهجرة الأولى، وأما الهجرة الثانية إلى الحبشة فهي فيما زعم الواقدي سنة خمس من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣). ﴿إِلَى رَبِّي﴾ أي: إلى رضا ربي وإلى حيث أمرني^(٤). ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدّم. وتقدّم الكلام في الهجرة في «النساء»^(٥) وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ أي: مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْأَوْلَادِ، فوهب له إسحاق ولدًا ويعقوب ولدًا. وإنما وهب له إسحاق من بعد إسماعيل ويعقوب من إسحاق. ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ فلم يبعث الله نبيًا بعد إبراهيم إلا من صلبه. ووحد الكتاب؛ لأنه أراد المصدر كالنبوة، والمراد التوراة والإنجيل [والفرقان]، فهو عبارة عن الجمع، فالتوراة أنزلت على موسى من ولد إبراهيم، والإنجيل على عيسى من ولده، والفرقان على محمد من ولده صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين^(٦). ﴿وَأَيَّتَهُ أَجْرُو فِي

(١) المحرر الوجيز ٣١٤/٤.

(٢) أي: الضعاف التي تدب في المشي ولا تسرع. النهاية (دب).

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٢/٢٩٧. والحديث أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٣١١)، والأوائل (١٢٦)، والأحاد والمثاني (١٢٣) و(٢٩٧٨)، والطبراني (١٤٣) من طريق بشار بن موسى الخفاف، عن الحسن ابن زياد البرجمي، عن قتادة، به. قال الهيثمي في المجمع ٨١/٩: فيه الحسن بن زياد البرجمي، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات! قلنا: وبشار بن موسى قال فيه الحافظ في التقریب: ضعيف، كثير الغلط، كثير الحديث.

(٤) زاد المسير ٢٦٨/٦.

(٥) ٦٧/٧ فما بعد.

(٦) مجمع البيان ٣٥٥/٢٠ بنحوه. وما بين حاصرتين منه.

الدُّنْيَا ﴿٢٦﴾ يعني اجتماع أهل الملل عليه . قاله عكرمة . وروى سفيان عن حُميد بن قيس قال : أمر سعيد بن جبير إنساناً أن يسأل عكرمة عن قوله جل ثناؤه : ﴿وَأَتَيْنَهُ أَجْرُهُ فِي الدُّنْيَا﴾ فقال عكرمة : أهل الملل كلها تدعيه وتقول : هو مِنَّا . فقال سعيد بن جبير : صدق . وقال قتادة : هو مثل قوله : ﴿وَأَتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل: ١٢٢] أي : عاقبة وعملاً صالحاً وثناءً حسناً . وذلك أن أهل كلِّ دين يتولَّونه ^(١) . وقيل : ﴿وَأَتَيْنَهُ أَجْرُهُ فِي الدُّنْيَا﴾ أن أكثر الأنبياء من ولده ^(٢) . ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لِمِن الصَّالِحِينَ﴾ ليس ﴿فِي الآخِرَةِ﴾ داخلاً في الصَّلَة وإنما هو تبين ^(٣) وقد مضى في «البقرة» ^(٤) بيانه . وكلُّ هذا حثٌّ على الاقتداء بإبراهيم في الصبر على الدين الحقِّ .

قوله تعالى : ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيُّكُمْ لَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٥﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تُرَاهِمُ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَافَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكُ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ ﴿٣٨﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ قال الكسائي : المعنى : وأنجيننا لوطاً ، أو :

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/٢٢٠ .

(٢) النكت والعيون ٤/٢٨١ .

(٣) إعراب القرآن ٣/٢٥٤-٢٥٥ .

(٤) ٤٠٦/٢ .

أرسلنا لوطاً. قال: وهذا الوجه أحبُّ إليَّ^(١). ويجوز أن يكون المعنى: واذكر لوطاً إذ قال لقومه موبخاً أو مُحذراً: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ آلَ فَحِشَةٍ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾. ﴿أَيْتُكُمْ﴾ تقدّم القراءة في هذا وبيانها في سورة «الأعراف»^(٢). وتقدّم قصة لوط وقومه في «الأعراف»^(٣) و«هود»^(٤) أيضاً.

﴿وَتَقَطَّعُوا السَّبِيلَ﴾ قيل: كانوا قُطَّاعَ الطريق. قال ابن زيد. وقيل: كانوا يأخذون الناس من الطرق لقضاء الفاحشة. حكاه ابن شجرة. وقيل: إنه قَطَّعَ النَّسْلَ بالعدول عن النساء إلى الرجال. قاله وهب بن مُنَبِّه. أي: استغنوا بالرجال عن النساء^(٥).

قلتُ: ولعلَّ الجميعَ كان فيهم، فكانوا يقطعون الطريق لأخذ الأموال والفاحشة، ويستغنون عن النساء بذلك.

﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ النادي: المجلس. واختُلِفَ في المنكر الذي كانوا يأتونه فيه، فقالت فرقة: كانوا يخذفون الناس^(٦) بالحصى، ويستخفون بالغريب والخاطر عليهم^(٧). وروته أمُّ هانئ عن النبي ﷺ؛ قالت أمُّ هانئ: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ قال: «كانوا يخذفون مَنْ يمرُّ بهم ويسخرون منه، فذلك المنكر الذي كانوا يأتونه» أخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده»^(٨)، وذكره النحاس والشعبي والمهدي والماوردي^(٩). وذكر الشعبي:

(١) إعراب القرآن ٣/ ٣٥٥.

(٢) ٢٧٨/٩.

(٣) ٢٧٣/٩ فما بعد.

(٤) ١٧٣/١١ فما بعد.

(٥) التكت والعيون ٤/ ٢٨٢.

(٦) في (د) و(م): النساء. والمثبت من (ظ) والمحور الوجيز.

(٧) المحور الوجيز ٤/ ٣١٥.

(٨) (١٦١٧)، وأخرجه أحمد (٢٦٨٩١)، والترمذي (٣١٩٠) من طريق سماك بن حرب، عن أبي صالح مولى أم هانئ، عن أم هانئ، به. إسناده ضعيف لضعف أبي صالح مولى أم هانئ، واسمه باذام، ويقال: باذان.

(٩) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٠، والتكت والعيون ٥٤/ ٢٨٢ ولم يسق لفظه.

وقال معاوية قال النبي ﷺ: «إِنَّ قَوْمَ لَوِطَ كَانُوا يَجْلِسُونَ فِي مَجَالِسِهِمْ وَعِنْدَ كُلِّ رَجُلٍ قِصْعَةٌ فِيهَا الْحِصَى لِلخِذْفِ، فَإِذَا مَرَّ بِهِمْ عَابِرٌ قَذَفُوهُ، فَأَيْتُهُمْ أَصَابَهُ كَانَ أَوْلَى بِهِ» يعني: يذهبُ به للفاحشة، فذلك قوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ﴾. وقالت عائشة وابن عباس والقاسم بن أبي بزة والقاسم بن محمد: إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم^(١). وقال منصور عن مجاهد^(٢): كانوا يأتون الرجال في مجالسهم وبعضهم يرى بعضاً^(٣). وعن مجاهد: كان من أمرهم لعبُ الحمام، وتطريفُ الأصابع بالحناء، والصفير، والخذف، ونبذُ الحياء في جميع أمورهم. قال ابن عطية^(٤): وقد توجد هذه الأمور في بعض عصابة أمة محمد ﷺ؛ فالتناهي واجب. قال مكحول: في هذه الأمة عشرة من أخلاق قوم لوط: مضغ العلك، وتطريفُ الأصابع بالحناء، وحلُّ الإزار، وتنقيض الأصابع^(٥)، والعمامة التي تُلَفُّ حول الرأس، والتشابك، ورمي الجُلاهق^(٦)، والصفير، والخذف، واللُّوطية^(٧). وعن ابن عباس قال: إنَّ قوم لوط كانت فيهم ذنوبٌ غير الفاحشة، منها أنهم يتظالمون فيما بينهم، ويشتمُّ بعضهم بعضاً، ويتضارطون في مجالسهم، ويخذفون، ويلعبون بالترد والشطرنج، ويلبسون المصبغات، ويتناقرون بالديكة، ويتناطحون بالكباش، ويُطَرِّفون أصابعهم بالحناء، وتشبهُ الرجال بلباس النساء، والنساء بلباس الرجال، ويضربون المكوسَ على كلِّ عابر، ومع هذا كلُّه كانوا يشركون بالله، وهم أوَّلُ مَنْ ظهر على أيديهم اللُّوطية

(١) أخرجه الطبري ٣٨٩/٨، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٢٧٢) عن عائشة، وابن أبي حاتم (١٧٢٧٣) عن القاسم بن محمد، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣١٥/٤ عن ابن عباس.

(٢) في (د) و (ظ): وقال مجاهد ومنصور. والمثبت من (م) والمصادر.

(٣) أخرجه الطبري ٣٩١/١٨، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٢٧٤)، والخرائطي في مساوي الأخلاق (٤٤٧).

(٤) في المحرر الوجيز ٣١٥/٤، وما قبله منه.

(٥) أي: فرقعتها. الصحاح (فرقع).

(٦) أي: البندق الذي يرمى. معجم الألفاظ الفارسية المعربة ص ٤٣.

(٧) ذكره البغوي في تفسيره ٤٦٦/٣ مختصراً.

والسُّحاق. فلما وقفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح رجعوا إلى التكذيب واللجاج فقالوا: ﴿أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي: إنَّ ذلك لا يكون ولا يقدرُ عليه. وهم لم يقولوا هذا إلاَّ وهم مصمِّمون على اعتقاد كذبه. وليس يصحُّ في الفطرة أن يكون معانداً يقول هذا. ثم استنصر لوط عليه السلام ربَّه، فبعثَ عليهم ملائكةً لعذابهم، فجاؤوا إبراهيمَ أولاً مبشِّرين بنصرة لوط على قومه حسبما تقدَّم بيانه في «هود»^(١) وغيرها.

وقرأ الأعمش ويعقوب وحمزة والكسائي: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ بالتخفيف. وشدَّد الباقون. وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي: ﴿إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ﴾ بالتخفيف. وشدَّد الباقون. وهما لغتان: أنجى ونجى بمعنى. وقد تقدَّم^(٢). وقرأ ابن عامر: ﴿إِنَّا مُنْزَلُونَ﴾ بالتشديد، وهي قراءة ابن عباس. الباقون بالتخفيف^(٣). وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَزَّلْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قال قتادة: هي الحجارة التي أبقيت^(٤). وقاله أبو العالية. وقيل: إنه يُرجمُ بها قومٌ من هذه الأمة^(٥). وقال ابن عباس: هي آثارُ منازلهم الحَرَبية. وقال مجاهد: هو الماء الأسود على وجه الأرض^(٦). وكلُّ ذلك باقٍ فلا تعارض.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدِينِكَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَلْقَوْمِ ااعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدِينِكَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي: وأرسلنا إلى مدين. وقد تقدَّم

(١) ١٨٥/١١ .

(٢) ٤١٣/٨ .

(٣) السبعة ص ٥٠٠ ، والتيسير ص ٩٠ و ١٧٣ ، والنشر ٢/٢٥٩ . وقرأ خلف وهو من العشرة: «لننجينه» و«منجوك» بالتخفيف.

(٤) تفسير البغوي ٣/٤٦٧ . وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/٩٨ ، والطبري ١٨/٣٩٧ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٢٩٤).

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/٢٢٥ .

(٦) تفسير البغوي ٣/٤٦٧ ، ومجمع البيان ٢٠/٣٥٨ .

ذُكِرْهُمْ وَفَسَادُهُمْ فِي «الْأَعْرَافِ»^(١) و«هُود»^(٢).

﴿وَأَرْجُوا أَيَّامَ الْآخِرَةِ﴾ قال يونس النَّحْوِيُّ^(٣): أي: اخشوا الآخرة التي فيها الجزاء على الأعمال^(٤). ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تكفروا فإنه أصلُ كلِّ فساد. والعُتُوُّ والعِثْيُ أشدُّ الفساد. عَثِيَّ يَعْتِي وَعَثَا يَعْتُو بمعنى واحد^(٥). وقد تقدّم^(٦). وقيل: ﴿وَأَرْجُوا أَيَّامَ الْآخِرَةِ﴾ أي: صدّقوا به، فإنَّ القوم كانوا يُنكرونها.

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا﴾ قال الكسائي: قال بعضهم: هو راجعٌ إلى أوّل السورة، أي: ولقد فتنا الذين من قبلهم وفتنا عاداً وثمود. قال: وأحبُّ إليّ أن يكون معطوفاً على «فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ» وأخذت عاداً وثموداً. وزعم الزجاج أن التقدير: وأهلكننا عاداً وثموداً^(٧). وقيل: المعنى: واذكر عاداً إذ أرسلنا إليهم هوداً فكذبوه فأهلكناهم، وثموداً أيضاً أرسلنا إليهم صالحاً فكذبوه فأهلكناهم بالصيحة كما أهلكناهم بالصيحة كما أهلكننا عاداً بالريح العقيم. ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ يا معشر الكفار ﴿مِنْ مَسْكِنِهِمْ﴾ بالحجر والأحقاب آياتٌ في إهلاكهم، فحذِفَ فاعلُ التبيين^(٨). ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ أي: أعمالهم الخسيسة فحسبوا ربيعة.

(١) ٢٨٣-٢٨٢/٩

(٢) ١٩٧-١٩١/١١

(٣) هو يونس بن يحيى بن نباة القرشي المدني، وهو من رواة الحديث، توفي سنة ٢٠٦هـ الكاشف ٤٠٤/٢

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٤١٩/٣ عن مقاتل.

(٥) تهذيب اللغة ١٥٠/٣.

(٦) ٢٦٩/٩

(٧) إعراب القرآن ٢٥٦/٣. وقول الزجاج في معاني القرآن له ١٦٨/٤.

(٨) الوسيط ٤٢٠/٣، وزاد المسير ٢٧١-٢٧٢/٦، ومجمع البيان ٣٦٠/٢٠ بنحوه.

﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: عن طريق الحق^(١). ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما وكانوا مستبصرين في الضلالة. قاله مجاهد. والثاني - كانوا مستبصرين قد عرفوا الحق من الباطل بظهور البراهين. وهذا القول أشبه؛ لأنه إنما يُقال: فلانٌ مستبصرٌ إذا عرف الشيء على الحقيقة^(٢). قال الفراء^(٣): كانوا عقلاء ذوي بصائر، فلم تنفعهم بصائرهم. وقيل: أتوا ما أتوا وقد تبين لهم أن عاقبتهم العذاب^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَقَرُّوْكَ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ﴾ ولقد جاءهم مومنين بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سيقين ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَرُّوْكَ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ﴾ قال الكسائي: إن شئت كان محمولاً على عاد، وكان فيه ما فيه، وإن شئت كان على ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ وصدَّ قارونَ وفرعونَ وهامان^(٥). وقيل: أي: وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل ﴿فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ عن الحق وعن عبادة الله.

﴿وَمَا كَانُوا سَاقِئِينَ﴾ أي: فائتين^(٦). وقيل: سابقين في الكفر^(٧). بل قد سبقهم للكفر قرون كثيرة فأهلكناهم. ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ قال الكسائي: «فكلاً» منصوبٌ بـ«أخذنا»^(٨) أي: أخذنا كلًّا بذنبه. ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ يعني قوم لوط.

(١) تفسير البغوي ٤٦٧/٣.

(٢) إعراب القرآن ٢٥٦/٣.

(٣) في معاني القرآن له ٣١٧/٢.

(٤) معاني القرآن للزجاج ١٦٩/٤.

(٥) إعراب القرآن ٢٥٦/٣.

(٦) تفسير البغوي ٤٦٧/٣.

(٧) المحرر الوجيز ٣١٧/٤.

(٨) إعراب القرآن ٢٥٦/٣.

والحاصب: ريح يأتي بالحصباء وهي الحصى الصغار^(١). وتُستعمل في كلِّ عذاب. ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ يعني ثموداً وأهل مدين. ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ يعني قارون ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ قوم نوح وقوم فرعون^(٢). ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾ لأنه أُنذرهم وأمهلهم وبعث إليهم الرسل وأزاح العذر.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ أَخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ﴾ قال الأخفش: ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ﴾ وقف تام، ثم قصر قصتها فقال: ﴿أَخَذَتْ بَيْتًا﴾ قال ابن الأنباري: وهذا غلط؛ لأنَّ «أَخَذَتْ بَيْتًا» صلة للعنكبوت، كأنه قال: «كمثل التي اتخذت بيتاً»، فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول، وهو بمنزلة قوله: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥] فيحمل صلة للحمار، ولا يحسن الوقف على الحمار دون يحمل. قال الفراء: هو مثلٌ ضربته الله سبحانه لمن اتَّخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره؛ كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حراً ولا برداً. ولا يحسن الوقف على العنكبوت؛ لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقيها من شيء، فشبهت الآلهة التي لا تنفع ولا تضر به^(٣).

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ﴾ أي: أضعف البيوت^(٤) ﴿لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ قال الضحاك:

(١) تفسير البغوي ٣/٤٦٧-٤٦٨.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/١٦٩.

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/٨٢٧ - ٨٢٨. وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/٣١٧.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/٥٣٨.

ضرب مثلاً لضعف آلهتهم ووهنها فشبهها ببيت العنكبوت^(١). ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾
«لَوْ» متعلقة ببيت العنكبوت. أي: لو علموا أن عبادة الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت
التي لا تغني عنهم شيئاً، وأن هذا مثلهم لما عبدوها، لا أنهم يعلمون أن بيت
العنكبوت ضعيف^(٢). وقال النحاة: إن تاء العنكبوت في آخرها مزيدة؛ لأنها تسقط
في التصغير والجمع. وهي مؤنثة، وحكى الفراء تذكيرها وأنشد:
على هَطَالِهِمْ مِنْهُمْ بُيُوتٌ كَأَنَّ الْعَنْكَبُوتَ قَدْ ابْتَنَاهَا^(٣)
ويروى:

على أهطالهم منهم بيوت

قال الجوهري: والهَطَالُ: اسم جبل^(٤). والعنكبوت: الدُوَيْبَةُ المعروفة التي
تنسج نسجاً رقيقاً مهلهلاً بين الهواء^(٥). ويُجمع عناكيب وعنكيب وعكاب وعكب
وأعكب. وقد حُكِيَ أنه يُقال: عَنَكِبَ^(٦) وَعَكَّنَبَا^(٧)؛ قال الشاعر:
كَأَمَّا يَسْقُطُ مِنْ لَعَامِهَا^(٨) بَيْتٌ عَكَّنَبَا عَلَى زَمَامِهَا
وَتُصَغَّرُ فَيُقَالُ: عُنَيْكِبَ^(٩). وقد حُكِيَ عن يزيد بن مرثد^(١٠) أن العنكبوت شيطانٌ

(١) إعراب القرآن ٢٥٧/٣.

(٢) معاني القرآن للزجاج ١٦٩/٤ بنحوه.

(٣) من قوله: وهي مؤنثة.... إلى نهاية البيت من إعراب القرآن ٢٥٧/٣. وكلام الفراء في معاني القرآن له
٣١٧/٢.

(٤) الصحاح (هطل)، وما قبله منه.

(٥) تهذيب اللغة ٣٠٩/٣.

(٦) إعراب القرآن ٢٥٧/٣.

(٧) وهي في لغة أهل اليمن فيما نقل الأزهرى في تهذيب اللغة ٣٠٩/٣ عن الليث.

(٨) أي: زبدها. الصحاح (لغم).

(٩) تهذيب اللغة ٣٠٩/٣.

(١٠) في النسخ: يزيد بن ميسرة، وهو تحريف.

مسخها الله تعالى^(١). وقال عطاء الخراساني: نسجت العنكبوت مرتين مرة على داود حين كان جالوت يطلبه، ومرة على النبي ﷺ؛ ولذلك نهى عن قتلها^(٢). ويروى عن عليّ ﷺ أنه قال: طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت، فإن تركه في البيوت يورث الفقر، ومنع الخمير يورث الفقر^(٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ «ما» بمعنى الذي^(٤)، و«من» للتبعيض، ولو كانت زائدة للتوكيد لانقلب المعنى^(٥)، والمعنى: إن الله يعلم ضِعْفَ ما يعبدون من دونه.

وقرأ عاصم وأبو عمرو ويعقوب: «يَدْعُونَ» بالياء، وهو اختيار أبي عبيد؛ لذكر الأمم قبلها. الباقر بالتاء على الخطاب^(٦).

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا﴾ أي: هذا المثل وغيره مما ذكر في «البقرة»^(٧) و«الحج»^(٨) وغيرهما ﴿نَضْرِبُهَا﴾ نُبَيِّنُهَا ﴿لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا﴾ أي: يفهمها ﴿إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ أي: العالمون بالله، كما روى جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «العالم من عقل عن الله، فعول بطاعته، واجتنب سخطه»^(٩).

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل (٥٠٠) و(٥٠٤) من طريق بقية بن الوليد، عن الوضين بن عطاء، عن يزيد بن مرثد مرفوعاً بلفظ: «العنكبوت شيطان فاقتلوه». إسناده منقطع، وبقية مدلس وقد عنعن فيه، والوضين سيئ الحفظ.

وأخرجه ابن عدي في الكامل ٢٣١٧/٦ من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ مرفوعاً بلفظ: «العنكبوت شيطان مسخه الله فاقتلوه». وفي إسناده مسلمة بن علي الخشني، وهو متروك، قال ابن عدي: وعامة أحاديثه غير محفوظة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٢٣) دون قوله: ولذلك نهى عن قتلها.

(٣) المحرر الوجيز ٣١٨/٤ دون قوله: ومنع الخمير يورث الفقر.

(٤) البيان ٢٤٥/٢.

(٥) إعراب القرآن ٢٥٧/٣.

(٦) السبعة ص ٥٠١، والتيسير ص ١٧٤، والنشر ٣٤٣/٢.

(٧) ٣٦٥/١.

(٨) ٤٤٦-٤٤٧/١٤.

(٩) تفسير البغوي ٤٦٨/٣. والحديث أخرجه داود بن المحبر في كتاب العقل فيما ذكر الزيلعي في =

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل والقسط. وقيل: بكلامه وقدرته وذلك هو الحق. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: علامة ودلالة ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين.

قوله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ ﴿٤٥﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَتْلُ﴾ أمرٌ بالتلاوة^(١) والدُّوْب عليها. وقد مضى في «طه»^(٢) الوعيدُ فيمن أعرَضَ عنها، وفي مقدِّمة الكتاب^(٣) الأمرُ بالحرصِ عليها. والكتاب يُراد به القرآن.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ الخطابُ للنبيِّ ﷺ وأُمَّتِهِ، وإقامة الصلاة أداؤها في أوقاتها بقوامتها وركوعها وسجودها وقعودها وتشهدها وجميع شروطها. وقد تقدَّم بيانُ ذلك في «البقرة»^(٤) فلا معنى للإعادة.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ يريدُ: إنَّ

= تخريج الأحاديث والآثار ٤٣/٣، وأخرجه من طريقه الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (٨٣٧)، والواحد في الوسيط ٤٢٠/٣. وداود بن المحبر متروك فيما قاله الدارقطني في الضعفاء والمتروكين ٢٠٢/١. ونقل ابن الجوزي في الموضوعات ٢١٩/٢ عن الدارقطني أنه قال: كتاب العقل وضعه أربعة أولهم ميسرة بن عبد ربه، ثم سرقه منه داود بن المحبر، فركبه بأسانيد غير أسانيد ميسرة، وسرقه عبد العزيز بن أبي رجاء فركبه بأسانيد آخر، ثم سرقه سليمان بن عيسى السجزي فأتى بأسانيد آخر.

(١) في (د) و(م): من التلاوة، والمثبت من (ز) و(ظ).

(٢) ١٥٧/١٤.

(٣) ٦/١ فما بعد.

(٤) ٢٥٣/١ فما بعد.

الصلاة الخمس هي تكفّر ما بينها من الذنوب، كما قال عليه الصلاة والسلام: «أرأيتم لو أنّ نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كلّ يوم خمس مرّات هل يبقى من دَرَنه شيء؟» قالوا: لا يبقى من دَرَنه شيء. قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهنّ الخطايا» خرّجه الترمذي من حديث أبي هريرة، وقال فيه: حديث حسن صحيح^(١). وقال ابن عمر: الصلاة هنا القرآن^(٢). والمعنى: الذي يُتلى في الصلاة ينهى عن الفحشاء والمنكر، وعن الزنى والمعاصي.

قلت: ومنه الحديث الصحيح: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدتي نصفين»^(٣) يريد قراءة الفاتحة. وقال حماد بن أبي سليمان وابن جريح والكلبي: العبد مادام في صلاته لا يأتي فحشاء ولا منكرًا، أي: إنّ الصلاة تنهى ما دمت فيها. قال ابن عطية^(٤): وهذه عجمة، وأين هذا ممّا رواه أنس بن مالك قال: كان فتى من الأنصار يُصلي مع النبي ﷺ ولا يدع شيئاً من الفواحش والسرقة إلّا ركبه، فذكر للنبي ﷺ فقال: «إنّ الصلاة ستنهاه» فلم يلبث أن تاب وصلحت حاله، فقال رسول الله ﷺ: «ألم أقل لكم؟»^(٥).

وفي الآية تأويل ثالث، وهو الذي ارتضاه المحققون وقال به المشيخة الصوفية وذكره المفسرون، فقيل: المراد بـ«أقيم الصلاة» إدامتها والقيام بحدودها، ثم أخبر حكماً منه بأن الصلاة تنهى صاحبها وممثلها عن الفحشاء والمنكر؛ وذلك لما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة، والصلاة تشغل كلّ بدن المصلي، فإذا دخل

(١) سنن الترمذي (٢٨٦٨). وأخرجه أحمد (٨٩٢٤)، والبخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

(٢) المحرر الوجيز ٤/٣١٩-٣٢٠.

(٣) وقد سلف ١/١٤٥-١٤٦.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/٣٢٠ وما قبله منه، وقول حماد بن أبي سليمان أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٤٦).

(٥) لم نقف على من أخرجه من حديث أنس ﷺ. وأخرجه أحمد (٩٧٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً بلفظ: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن فلاناً يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق! قال: «إنه سينهاه ما تقول».

المصلي في محرابه وخشع وأخبت لربّه وأذكر أنه واقف بين يديه، وأنه مُطَّلَع عليه ويراها، صلّحت لذلك نفسه وتذلّلت، وخامرها ارتقابُ الله تعالى، وظهرت على جوارحه هيئتها، ولم يكذّ يفتر من ذلك حتى تُظَلَّه صلاةٌ أخرى يرجع بها إلى أفضل حالة. فهذا معنى هذه الأخبار؛ لأنّ صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون.

قلتُ: لاسيما وإن أشعر نفسه أنّ هذا ربما يكون آخر عمله، وهذا أبلغ في المقصود وأتم في المراد؛ فإنّ الموت ليس له سنٌّ محدود، ولا زمنٌ مخصوص، ولا مرضٌ معلوم، وهذا مما لا خلاف فيه. ورُوي عن بعض السلف أنه كان إذا قام على الصلاة ارتعد واصفرّ لونه، فكُلّم في ذلك فقال: إني واقف بين يدي الله تعالى، وحقّ لي هذا مع ملوك الدنيا فكيف مع ملك الموت؟! فهذه صلاةٌ تنهى ولا بدّ عن الفحشاء والمنكر، ومن كانت صلاته دائرةً حول الإجزاء، لا خشوعَ فيها ولا تذكّر ولا فضائل، كصلاتنا - وليتها تُجزئ - فتلك ترك صاحبها من منزلته حيث كان، فإن كان على طريقةٍ معاصٍ تُبعده من الله تعالى تركته الصلاة يتمادى على بعده. وعلى هذا يُخرَج الحديثُ المرويُّ عن ابن مسعود وابن عباس والحسن والأعمش قولهم: مَنْ لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تَزِدْه من الله إلاّ بُعداً^(١). وقد رُوي أنّ الحسن أرسله عن النبي ﷺ وذلك غير صحيح السند^(٢). قال ابن عطية^(٣): سمعت أبي ﷺ

(١) أخرجه أحمد في الزهد ص ١٩٩، والطبري ٤٠٩/١٨، والطبراني (٨٥٤٣)، والبيهقي في الشعب (٣٢٦٤) عن ابن مسعود ﷺ. وأخرجه الطبري ٤٠٨/١٨ عن ابن عباس ﷺ. والطبري ٤١٠/١٨ عن الحسن.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٩٨/٢، والطبري ٤٠٩/١٨، والبيهقي في الشعب (٣٢٦٢) عن الحسن مرفوعاً.

وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٣٩) من طريق عمر بن أبي عثمان، عن الحسن، عن عمران بن حصين مرفوعاً. عمر بن أبي عثمان مجهول، والحسن لم يسمع من عمران. المراسيل ص ٤٠.

وأخرجه ابن أبي حاتم (١٧٣٤٠)، والطبراني (١١٠٢٥)، والقضاعى في مسند الشهاب (٥٠٩). من طريق ليث - وهو ابن أبي سليم - عن طاوس، عن ابن عباس مرفوعاً. ليث ضعيف. ميزان الاعتدال ٤٢٠/٣.

(٣) في المحرر الوجيز ٣١٩/٤، وما قبله وما بعده منه.

يقوله، فإذا قررنا ونظرَ معناه فغيرُ جائزٍ أن يقول: إنَّ نفسَ صلاةِ العاصي تُبعدهُ من الله حتى كأنَّها معصية، وإنما يتخرَّج ذلك على أنها لا تؤثرُ في تقريبه من الله، بل تركه على حاله ومعاصيه، من الفحشاء والمنكر والبعد، فلم تزده الصلاة إلا تقريرَ ذلك البعد الذي كان بسبيله^(١)؛ فكأنَّها بعدته حين لم تكفَّ بعده عن الله. وقيل لابن مسعود: إنَّ فلاناً كثيرُ الصلاة. فقال: إنها لا تنفع إلا من أطاعها^(٢).

قلت: وعلى الجملة فالمعنى المقصود بالحديث: «لم تزده من الله إلا بعداً، ولم يزد بها من الله إلا مقتاً» إشارة إلى أنَّ مرتكبَ الفحشاء والمنكر لا قدرَ لصلاته؛ لغلبة المعاصي على صاحبها، وقيل: هو خبرٌ بمعنى الأمر. أي: لينتَه المصلِّي عن الفحشاء والمنكر. والصلاة بنفسها لا تنهى، ولكنها سببُ الانتهاء، وهو كقوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُطِيقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩] وقوله: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: ذكُرُ الله لكم بالشواب والثناء عليكم أكبرُ من ذِكْرِكُمْ له في عبادتكم وصلواتكم. قال معناه ابن مسعود وابن عباس وأبو الدرداء وأبو قرة وسلما والحسن^(٣)، وهو اختيار الطبري^(٤). وروى مرفوعاً من حديث موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر، أنَّ النبي ﷺ قال في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال: «ذِكْرُ اللَّهِ إِيَّاكُمْ أكبرُ من ذِكْرِكُمْ إِيَّاه»^(٥). وقيل: ذِكْرِكُمْ

(١) في (م): سبيله، والمثبت من النسخ الخطية والمحرو الوجيز.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ٢٩٨/١٣، والطبري ٤٠٨/٨-٤٠٩، وابن أبي حاتم (١٧٣٤٢)، والبيهقي في الشعب (٣٢٦٣).

(٣) المحرر الوجيز ٣٢٠/٤، وقول ابن مسعود أخرجه ابن أبي شيبة ٢٩٨/١٣، وأحمد في الزهد ص ٢٦٧، والطبري ٤١٤/١٨. وقول ابن عباس أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٩٨/٢، والطبري ٤١١/١٨-٤١٤، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٥٠) و(١٧٣٥٢)، والحاكم ٤٠٩/٢. وأخرجه الطبري ٤١٣/١٨-٤١٤ عن أبي الدرداء، و٤١٤/١٨ عن أبي قرة، و٤١٣/١٨ عن سلمان والحسن.

(٤) في تفسيره ٤١٧/١٨.

(٥) تفسير البغوي ٤٧٠/٣. وأخرجه الديلمي في الفردوس ٤٠٦/٤.

الله في صلاتكم وفي قراءة القرآن أفضل من كل شيء^(١). وقيل: المعنى: إنَّ ذَكَرَ اللهُ أكبرُ مع المداومة من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر^(٢). وقال الضحَّاك: وَلَذِكْرُ اللهِ: عند ما يُحْرِمُ فيتركُ أَجَلَ الذِّكْرِ. وقيل: المعنى وَلَذِكْرُ اللهُ للنهي عن الفحشاء والمنكر أكبر، أي: كبير، وأكبر يكون بمعنى كبير^(٣). وقال ابن زيد وقتادة: وَلَذِكْرُ اللهُ أكبرُ من كلِّ شيءٍ، أي: أفضل من العبادات كلها بغير ذكر^(٤). وقيل: ذِكْرُ اللهُ يمنع من المعصية، فإنَّ مَنْ كان ذاكرًا له لا يُخَالِفُه^(٥). قال ابن عطية^(٦): وعندي أنَّ المعنى: وَلَذِكْرُ اللهُ أكبرُ على الإطلاق، أي: هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر، فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك، وكذلك يفعل في غير الصلاة؛ لأنَّ الانتهاء لا يكون إلاَّ من ذاكرِ الله مراقِبٍ له. وثوابُ ذلك أن يذكره اللهُ تعالى، كما في الحديث: «مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»^(٧) والحركات التي في الصلاة لا تأثير لها في نهْي، والذِّكْرُ النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفرُّغه إلاَّ من الله. وأما ما لا يتجاوز اللسان ففي رتبةٍ أخرى. وَذِكْرُ اللهُ تعالى للعبد هو إفاضة الهدى ونور العلم عليه، وذلك ثمرةٌ لذكر العبد ربَّه. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وباقي الآية ضَرْبٌ من الوعيد والحثُّ على المراقبة.

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٨٥، وزاد المسير ٦/ ٢٧٥.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٧-٢٥٨.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠.

(٥) الوسيط ٣/ ٤٢١، وتفسير أبي الليث ٢/ ٥٣٩ بمعناه.

(٦) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠.

(٧) سلف ١٤/ ٢٩.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَاللَّهُمَّ وَجِدْ وَنَحْنُ لَكَ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: اختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ فقال مجاهد: هي مُحْكَمَةٌ فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله عز وجل، والتنبيه على حججه وآياته؛ رجاء إجابتهم إلى الإيمان، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة. وقوله على هذا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ معناه: ظلموكم، وإلا فكلهم ظلمة على الإطلاق^(١). وقيل: المعنى: لا تجادلوا مَنْ آمَنَ بمحمد ﷺ من أهل الكتاب المؤمنين كعبد الله بن سلام وَمَنْ آمَنَ معه^(٢). ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالموافقة فيما حدثوكم به من أخبار أوائلهم وغير ذلك. وقوله على هذا التأويل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يريد به مَنْ بقي على كفره منهم، كمن كفر وغدر من قريظة والنضير وغيرهم. والآية على هذا أيضاً محكمة. وقيل: هذه الآية منسوخة بآية القتال؛ قوله تعالى: ﴿فَتَبَلَّغُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [التوبة: ٢٨]. قاله قتادة^(٣).

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: جعلوا لله ولداً، وقالوا: ﴿يَدُّ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] و﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨]^(٤) فهؤلاء المشركون^(٥). قال النحاس وغيره: من قال

(١) المحرر الوجيز ٤/٣٢٠.

(٢) تفسير البغوي ٣/٤٧٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/٣٢٠-٣٢١. وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/٩٨، والطبري ١٨/٤٢٠، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٥٥)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٧٤٦).

(٤) أخرجه الطبري ١٨/٤٢٣ عن مجاهد.

(٥) بعدها في النسخ عبارة: «في سقوط الجزية فانتصروا» ولم نبيتها.

هي منسوخة، احتجَّ بأن الآية مكية، ولم يكن في ذلك الوقت قتالٌ مفروض، ولا طلب جزية، ولا غير ذلك. وقولٌ مجاهدٍ حسن؛ لأنَّ أحكام الله عزَّ وجلَّ لا يُقال فيها: إنها منسوخةٌ إلاَّ بخبرٍ يقطع العذر، أو حُجَّةٍ من معقول^(١). واختار هذا القول ابن العربي^(٢). قال مجاهد وسعيد بن جبير: وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ معناه: إلاَّ الذين نصبوا للمؤمنين الحرب فجداهم بالسيف حتى يؤمنوا، أو يُعطوا الجزية^(٣).

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ روى البخاري^(٤) عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويُفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تُكذِّبُوهم وقولوا: ﴿آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾» [آل عمران: ١٣٦]. وروى عبد الله بن مسعود أنَّ النبي ﷺ قال: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيءٍ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلُّوا، إمَّا أن تُكذِّبوا بحقٍّ، وإمَّا أن تُصدِّقوا بباطلٍ»^(٥). وفي البخاري^(٦): عن حميد ابن عبد الرحمن سمع معاويةً يُحدِّث رهطاً من قريشٍ بالمدينة، وذكر كعبَ الأخبار فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يُحدِّثون عن أهل الكتاب، وإن كُنَّا مع ذلك لنَبْلُو عليه الكذب.

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٥٧٦/٢ دون قوله: «ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض» فهو في المحرر الوجيز ٣٢١/٤.

(٢) في أحكام القرآن ١٤٧٥/٣.

(٣) تفسير البغوي ٤٧٠/٣، وزاد المسير ٢٧٥/٦ من غير نسبة.

(٤) في صحيحه (٤٤٨٥)، وقد سلف ٤١٥/٢.

(٥) المحرر الوجيز ٣٢١/٤. وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٠١٦٢) و(١٩٢١٢)، والطبري ٤٢٣/١٨

من طريق حريث بن ظهير، عن عبد الله بن مسعود ؓ موقوفاً. وحريث بن ظهير مجهول. قلنا: وقد

رُوي مرفوعاً كما في مسند أحمد (١٤٦٣١) من حديث جابر بن عبد الله ؓ، وفي إسناده مجالد بن

سعيد الهمداني، وهو ضعيف.

(٦) في صحيحه (٧٣٦١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِيَمِينِكَ إِذًا
لَأَرْتَابَ الْمُبِطُلُونَ ﴿٤٨﴾﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ الضمير في «قَبْلِهِ» عائد إلى الكتاب، وهو القرآن المُنَزَّل على محمد ﷺ، أي: وما كنت يا محمد تقرأ قبله، ولا تختلف إلى أهل الكتاب، بل أنزلناه إليك في غاية الإعجاز والتضمين للغيوب وغير ذلك، فلو كنت ممن يقرأ كتاباً، ويخط حروفاً ﴿لَأَرْتَابَ الْمُبِطُلُونَ﴾ أي: من أهل الكتاب، وكان لهم في ارتيابهم متعلق، وقالوا: الذي نجده في كتبنا أنه أمي لا يكتب ولا يقرأ وليس به. قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمداً ﷺ لا يخط ولا يقرأ، فنزلت هذه الآية^(١)؛ قال النحاس^(٢): دليلاً على نبوته لقريش؛ لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب، ولم يكن بمكة أهل الكتاب، فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم، وزالت الريبة والشك.

الثانية: ذكر النقاش في تفسير هذه الآية عن الشعبي أنه قال: ما مات النبي ﷺ حتى كتب^(٣). وأسند أيضاً حديث أبي كبشة السلولي؛ مضمونه: أنه ﷺ قرأ صحيفة لعيينة^(٤) بن حصن، وأخبر بمعناها. قال ابن عطية^(٥): وهذا كله ضعيف، وقول الباجي رحمه الله منه.

قلت: وقع في «صحيح مسلم» من حديث البراء في صلح الحديبية أن النبي ﷺ قال لعلي: «اكتب الشرط بيننا: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال له المشركون: لو نعلم أنك رسول الله تابعناك - وفي رواية بايعناك -

(١) المحرر الوجيز ٤/٣٢١-٣٢٢.

(٢) في إعراب القرآن ٣/٢٥٨.

(٣) أخرجه البيهقي ٧/٤٢-٤٣ وقال: هذا حديث منقطع، وفي رواية جماعة من الضعفاء والمجهولين.

(٤) أخرجه أبو داود (١٦٢٩).

(٥) في المحرر الوجيز ٤/٣٢٢، والمسألة كلها منه.

ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فأمر علياً أن يمحوها، فقال علي: والله لا أمحاه. فقال رسول الله ﷺ: «أرني مكانها» فأراه، فمحاها وكتب: ابن عبد الله^(١). قال علماءنا ﷺ: وظاهر هذا أنه عليه الصلاة والسلام محا تلك الكلمة التي هي رسول الله - ﷺ - بيده، وكتب مكانها: ابن عبد الله. وقد رواه البخاري بأظهر من هذا، فقال: فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب فكتب^(٢). وزاد في طريق أخرى: ولا يحسن أن يكتب^(٣). فقال جماعة بجواز هذا الظاهر عليه وأنه كتب بيده، منهم السمناني وأبو ذر والباجي، ورأوا أن ذلك غير قادح في كونه أمياً، ولا مُعارضٌ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّونَ بِيَمِينِكُمْ﴾ ولا لقوله: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»^(٤). بل رأوه زيادة في معجزاته، واستظهاراً على صدقه وصحة رسالته، وذلك أنه كتب من غير تعلُّمٍ لكتابة، ولا تعاطٍ لأسبابها، وإنما أجرى الله تعالى على يده وقلمه حركاتٍ كانت عنها خطوطٌ مفهومها ابن عبد الله لمن قرأها، فكان ذلك خارقاً للعادة، كما أنه عليه الصلاة والسلام عَلِمَ الأوَّلِينَ والآخرين من غير تعلُّمٍ ولا اكتساب، فكان ذلك أبلغ في معجزاته، وأعظم في فضائله. ولا يزول عنه اسمُ الأميِّ بذلك؛ ولذلك قال الراوي عنه في هذه الحالة: ولا يُحسنُ أن يكتب^(٥). فبقي عليه اسمُ الأميِّ مع كونه قال: كتب. قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر: وقد أنكر هذا كثيرٌ من متفكِّهة الأندلس وغيرهم، وشدَّدوا النكير فيه، ونسبوا قائله إلى الكفر، وذلك دليلٌ على عدم العلوم النظرية، وعد التوقُّف في تكفير المسلمين، ولم يتفطنوا؛ لأنَّ تكفير المسلم كفتله على ما جاء عنه عليه الصلاة والسلام في الصحيح^(٦)، لاسيما

(١) صحيح مسلم (١٧٨٣). وهو في مسند أحمد (١٨٥٦٧)، والبخاري (٢٦٩٨).

(٢) صحيح البخاري (٢٦٩٩).

(٣) صحيح البخاري (٤٢٥١).

(٤) سلف ٢/٢١٦.

(٥) في المفهم ٣/٦٣٧-٦٣٨، وما قبله منه، يعني من قوله: وظاهر هذا أنه....

(٦) أخرجه أحمد (١٦٣٨٥)، والبخاري (٦١٠٥) من حديث ثابت بن الضحاك ﷺ مرفوعاً بلفظ: «من رمى

مؤمناً بكفر فهو كفتله».

رمي مَنْ شهد له أهل العصر بالعلم والفضل والإمامة، على أنَّ المسألة ليست قطعية، بل مستندُها ظواهرُ أخبارٍ أحاديِّ صحيحة، غير أن العقل لا يُحيلها، وليس في الشريعة قاطعٌ يُحيلُ وقوعها.

قلتُ: وقال بعض المتأخرين: مَنْ قال: هي آيةٌ خارقة، فيقال له: كانت تكون آيةً لا تُنكرُ لولا أنها مناقضةٌ لآيةٍ أخرى وهي كونه أمياً لا يكتب، وبكونه أمياً في أمةٍ أميةٍ قامت الحج، وأفجمَ الجاحدون، وانحسمتِ الشبهة، فكيف يُطلقُ الله تعالى يده فيكتب وتكون آية. وإنما الآيةُ الأُولى لا يكتب، والمعجزات يستحيل أن يدفَع بعضها بعضاً. وإنما معنى كتب وأخذ القلم، أي: أمرَ مَنْ يكتبُ به من كُتَّابه، وكان من كُتَّبةِ الوحي بين يديه ﷺ ستةٌ وعشرون كاتباً^(١).

الثالثة: ذكر القاضي عياض عن معاوية أنه كان يكتب بين يدي النبي ﷺ فقال له: «ألقي الدَّوَاءَ، وحرِّفِ القَلَمَ، وأقمِ الباءَ، وفرِّقِ السينَ، ولا تُعوِّرِ الميمَ، وحسِّنِ اللهَ، ومُدِّ الرحمنَ، وجوِّدِ الرحيمَ»^(٢) قال القاضي: وهذا وإن لم تصحَّ الروايةُ أنه ﷺ كتب فلا يبعدُ أن يُرزقَ علمُ هذا، ويُمنعَ القراءةُ والكتابةُ^(٣).

قلت: هذا هو الصحيح في الباب أنه ما كتب ولا حرفاً واحداً، وإنما أمر من يكتب وكذلك ما قرأ ولا تهجى. فإن قيل: فقد تهجى النبي ﷺ حين ذكر الدجَّال فقال: «مكتوبٌ بين عينيه: ك ا ف ر»^(٤) وقلتم: إنَّ المعجزة قائمةٌ في كونه أمياً؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ الآية، وقال: «إنا أمةٌ أميةٌ لا نكتب

(١) الروض الأنف ٣٦/٤.

(٢) ذكره الديلمي في الفردوس ٣٩٤/٥. وأخرجه السمعاني في أدب الإملاء والاستملاء ص ١٧٠ من طريق الوليد بن مسلم، عن يزيد بن يزيد بن جابر، عن مكحول، عن معاوية ﷺ. الوليد بن مسلم يدلُّ التسوية ولم يصرح بالتحديث في كل طبقات الإسناد. ومكحول لم يسمع من معاوية فيما ذكر ابن أبي حاتم في المراسيل ص ١٦٦.

(٣) المسألة في الشفا ١/٧٠٢-٧٠٣.

(٤) أخرجه أحمد (١٢٠٠٤)، والبخاري (٧١٣١)، ومسلم (٢٩٣٣) من حديث أنس ﷺ.

ولا نحسب» فكيف هذا؟ فالجواب ما نصَّ عليه رسول الله ﷺ في حديث حذيفة، والحديث كالقرآن يفسرُ بعضُه بعضاً، ففي حديث حذيفة: «يقرؤه كلُّ مؤمن كاتبٍ وغير كاتبٍ»^(١) فقد نصَّ في ذلك على غير الكتاب ممن يكون أمياً. وهذا من أوضح ما يكون جلياً.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبَيِّنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَحْكُدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبَيِّنُ﴾ يعني القرآن. قال الحسن: وزعم الفراء في قراءة عبد الله: «بَلْ هِيَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ» المعنى: بل آياتُ القرآن آياتٌ بيِّنات. قال الحسن: ومثله ﴿هَذَا بَصَائِرُ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] ولو كانت هذه لجاز، نظيره: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: ٩٨]^(٢) قال الحسن: أُعطيَتْ هذه الأمة الحفظ، وكان مَنْ قبلها لا يقرؤون كتابهم إلاً نظراً، فإذا أطبقوه لم يحفظوا ما فيه إلاً النبيون، فقال كعب في صفة هذه الأمة: إنهم حكماء علماء، وهم في الفقه أنبياء^(٣). ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: ليس هذا القرآن كما يقوله المبطلون من أنه سحرٌ أو شعر، ولكنه علاماتٌ ودلائلٌ يُعرفُ بها دينُ الله وأحكامه. وهي كذلك في صدور الذين أوتوا العلم، وهم أصحاب محمد ﷺ والمؤمنون به، يحفظونه ويقرؤونه. ووصفهم بالعلم؛ لأنهم ميّزوا بأفهامهم بين كلام الله وكلام البشر والشياطين. وقال قتادة وابن عباس: ﴿بَلْ هُوَ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿آيَاتٌ يَبَيِّنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من أهل الكتاب يجدونه مكتوباً عندهم في كتبهم بهذه الصفة أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولكنهم ظلموا أنفسهم وكتّموا^(٤). وهذا اختيار الطبري^(٥). ودليلُ هذا القول قراءةُ ابن مسعود

(١) أخرجه أحمد (٢٣٢٧٩)، ومسلم (٢٩٣٤): (١٠٥).

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٨، وقول الفراء في معاني القرآن له ٣١٧/٢، وقراءة عبد الله هذه شاذة.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٨٧.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٧١ بنحوه.

(٥) في تفسيره ١٨/ ٤٢٧.

وابن السَّمِيعِ: «بَلْ هَذَا آيَاتُ بَيِّنَاتٍ»^(١) وكان عليه الصلاة والسلام آياتٍ لا آيةً واحدة؛ لأنه دلّ على أشياء كثيرة من أمر الدين؛ فلهذا قال: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾. وقيل: بل هو ذو آيات بيّنات، فحذف المضاف. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ أي: الكفار؛ لأنهم جحدوا نبوّته وما جاء به.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٥﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَرَحِيمٌ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَطْلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ هذا قول المشركين لرسول الله ﷺ، ومعناه: هلاً أنزل عليه آية كآيات الأنبياء^(٢). قيل: كما جاء صالح بالناقة، وموسى بالعصا، وعيسى بإحياء الموتى^(٣)، أي: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فهو يأتي بها كما يريد، إذا شاء أرسلها وليست عندي ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(٤).

وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي: «آية» بالتوحيد. وجمع الباقون^(٥). وهو اختيار أبي عبيد؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٦).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ هذا جواب

(١) وهي قراءة شاذة.

(٢) الوسيط ٤٢٣/٣.

(٣) النكت والعيون ٢٨٨/٤.

(٤) الوسيط ٤٢٣/٣، وزاد المسير ٢٧٩/٦.

(٥) السبعة ص ٥٠١، والتيسير ص ١٧٤.

(٦) ورد هذا الاختيار أبو علي الفارسي في الحجة للقراء السبعة ٤٣٥/٥.

لقولهم: «لولا أنزلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ»^(١). أي: أو لم يكفِ المشركين من الآيات هذا الكتابُ المعجزُ الذي قد تحدَّيْتَهُمْ بأن يأتوا بمثله و بسورةٍ منه، فعجزوا، ولو أتَيْتَهُمْ بآياتِ موسى وعيسى لقالوا: سحرٌ ونحن لا نعرف السحر، والكلام مقدورٌ لهم، ومع ذلك عجزوا عن المعارضة.

وقيل: إنَّ سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن عُيَيْنَةَ عن عمرو بن دينار عن يحيى ابن جعدة قال: أتى النبي ﷺ بكتفٍ فيه كتاب، فقال: «كفى بقوم ضلالةً أن يرغبوا عمَّا جاء به نبيُّهم إلى ما جاء به نبيٌّ غيرُ نبيِّهم أو كتابٌ غيرُ كتابهم» فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِيهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أخرجه أبو محمد الدارمي في «مسنده»^(٢). وذكره أهل التفسير في كتبهم^(٣). وفي مثل هذا قال لعمر ﷺ: «لو كان موسى بن عمران حيًّا لما وسَّعه إلا أتباعي»^(٤) وفي مثله قال ﷺ: «ليس مِنَّا من لم يتعَنَّ بالقرآن»^(٥) أي: يستغني به عن غيره. وهذا تأويل البخاري رحمه الله في الآية^(٦). وإذا كان لقارئه بكلِّ حرفٍ عشرُ حسناتٍ فأكثر على ما ذكرناه في مقدمة الكتاب، فالرغبة عنه إلى غيره ضلالٌ وخُسرانٌ وعُبنٌ ونقصان.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في القرآن ﴿لرَّحْمَةً﴾ في الدنيا والآخرة. وقيل: رحمةٌ في

(١) المحرر الوجيز ٤/٣٢٢.

(٢) (٤٧٨)، وأخرجه أبو داود في المراسيل (٤٥٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٨٠). وإسناده مرسل. (٣) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/٢٣٣، وأبو الليث في تفسيره ٢/٥٤١، والماوردي في النكت والعيون ٤/٢٨٨ - ٢٨٩، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٣٢٢، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/٢٧٩.

(٤) أخرجه أحمد (١٥١٥٦) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ، وفي إسناده مجالد بن سعيد الهمداني، وهو ضعيف.

وأخرجه أيضاً بنحوه (١٥٨٦٤) من حديث عبد الله بن ثابت ﷺ، وفي إسناده جابر بن يزيد الجعفي، وهو ضعيف أيضاً.

(٥) سلف ١/٢١.

(٦) إنما هو تأويل سفيان بن عيينة فيما نقل عنه البخاري في صحيحه عقب الحديث (٥٠٢٤).

الدنيا باستنقاذهم من الضلالة. ﴿وَذَكَّرْنَا﴾ في الدنيا بإرشادهم به إلى الحق ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: قُلْ للمكذِّبين لك: كفى بالله شهيداً يشهد لي بالصدق فيما أدعيه من أني رسوله، وأن هذا القرآن كتابه (٢).

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء. وهذا احتجاج عليهم في صحة شهادته عليهم؛ لأنهم قد أقرُّوا بعلمه فلزمهم أن يُقرُّوا بشهادته. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ قال يحيى بن سلام: إبليس. وقيل: بعبادة الأوثان والأصنام. قاله ابن شجرة. ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ أي: لتكذيبهم برسله، وجحدهم لكتابه. وقيل: بما أشركوا به من الأوثان، وأضافوا إليه من الأولاد والأضداد. ﴿أَوْلِيَّائِكَ هُمُ الْخَافِرُونَ﴾ أنفسهم وأعمالهم في الآخرة (٣).

قوله تعالى: ﴿وَسْتَعِجَلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٢﴾ يَسْتَعِجَلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَوْمَ يَعْشُرُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ قُوفِهِمْ وَمَنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَسْتَعِجَلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ لما أُنذِرهم بالعذاب قالوا لفرط الإنكار: عَجَلْ لنا هذا العذاب. وقيل: إنَّ قائل ذلك النَّضْر بن الحارث وأبو جهل حين قالَا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] وقولهم: ﴿رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قَطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ في نزول العذاب. قال ابن عباس: يعني: هو ما وعدتكَ ألاَّ أعذب قومك وأوخرهم إلى يوم القيامة. بيانه: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾

(١) النكت والعيون ٢٨٩/٤.

(٢) تفسير البغوي ٤٧١/٣.

(٣) النكت والعيون ٢٨٩/٤.

[القمر: ٤٦]. وقال الضحَّاك: هو مدَّة أعمارهم في الدنيا^(١). وقيل: المراد بالأجل المسمى النفخة الأولى. قاله يحيى بن سلام^(٢). وقيل: الوقت الذي قدره الله لهلاكهم وعذابهم. قاله ابن شجرة. وقيل: هو القتل يوم بدر^(٣). وعلى الجملة فلكلِّ عذابٍ أجلٌ لا يتقدَّم ولا يتأخَّر. دليله قوله: ﴿لِكُلِّ نَبْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧]. ﴿لِمَجَاءِ مَرُءٍ الْعَذَابِ﴾ يعني: الذي استعجلوه. ﴿وَلِيَأْيِنْتَهُمْ بَعْتَهُ﴾ أي: فجأة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يعلمون بنزوله عليهم^(٤). ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أي: يستعجلونك وقد أعدَّ لهم جهنم وأنها ستحيط بهم لا محالة، فما معنى الاستعجال. وقيل: نزلت في عبد الله بن أبي أمية وأصحابه من المشركين حين قالوا ﴿أَوْ شَقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ [الإسراء: ٩٢].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ قيل: هو متصلٌ بما هو قبله، أي: يوم يصيبهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، فإذا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنم^(٥). وإنما قال: ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ للمقاربة، وإلا فالغشيان من فوق أعْم، كما قال الشاعر:

عَلَفْتُهَا تَبْنَا وَمَاءً بَارِدًا^(٦)

وقال آخر:

لقد كان قَوَادَ الْجِيَادِ إِلَى الْعِدَا
عليهنَّ غَابٌ مِنْ قَنَى وَدُرُوعٍ^(٧)

(١) تفسير البغوي ٤٧١/٣، وقول الضحَّاك في الوسيط ٤٢٤/٣، وزاد المسير ٢٨٠/٦.

(٢) النكت والعيون ٢٩٠/٤.

(٣) زاد المسير ٢٨٠/٦ عن الثعلبي.

(٤) النكت والعيون ٢٩٠/٤.

(٥) تفسير البغوي ٤٧٢/٣.

(٦) هذا صدر بيت عجزه: حتى شئت همالة عينها. وقد سلف ٢٩١/١.

(٧) قائله الفرزدق، وهو في ديوانه ص ٤١٠، وفيه: الوغى بدل العدا.

﴿وَيَقُولُ دُؤُوبًا﴾ قرأ أهل المدينة والكوفة: «نَقُولُ» بالنون. الباقون بالياء. واختاره أبو عبيد؛ لقوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ﴾ ويحتمل أن يكون المَلَكُ الموَكَّلُ بهم يقول: «دُؤُوبًا» والقراءتان ترجع إلى معنى. أي: يقول المَلَكُ بأمرنا: ذوقوا^(١).

قوله تعالى: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَمِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ﴾ هذه الآية نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة - في قول مقاتل والكلبي - فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه، وأنَّ البقاء في بقعة على أذى الكفار ليس بصواب، بل الصواب أن تَتَلَمَّسَ عبادة الله في أرضه مع صالح عباد^(٢)، أي: إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة؛ لإظهار التوحيد بها^(٣). وقال ابن جبير وعطاء: إنَّ الأرض التي فيها الظلم والمنكر تترتب فيها هذه الآية، وتلزم الهجرة عنها إلى بلد حق. وقاله مالك^(٤). وقال مجاهد: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ﴾ فهاجروا وجاهدوا^(٥). وقال مطرف [بن عبد الله] بن الشَّخِير: المعنى: إنَّ رحمتي واسعة. وعنه أيضاً: إنَّ رزقي لكم واسع فابتغوه في الأرض^(٦). قال سفيان الثوري: إذا كنت بأرض غالية

(١) السبعة ص ٥٠١، والتيسير ص ١٧٤. وينظر الحجة للقراء السبعة ٤٣٦/٥.

(٢) المحرر الوجيز ٣٢٤/٤. وذكر مقاتل والكلبي من تفسير البغوي ٤٧٢/٣.

(٣) تفسير أبي الليث ٥٤٢/٢، وتفسير البغوي ٤٧٢/٣، وزاد المسير ٢٨١/٦.

(٤) المحرر الوجيز ٣٢٤/٤.

(٥) تفسير البغوي ٤٧٢/٣.

(٦) النكت والعيون ٣٩١/٤. والقول الثاني في تفسير البغوي ٤٧٢/٣، وزاد المسير ٢٨١/٦. وما بين حاصرتين من تلك المصادر.

فانتقل إلى غيرها تملأ فيها جرابك خبزاً بدرهم. وقيل: المعنى: إن أرضي التي هي أرض الجنة واسعة ﴿فَاعْبُدُون﴾ حتى أورثكموها^(١). ﴿فَإِيَّايَ﴾ منصوبٌ بفعلٍ مضمر، أي: فاعبدوا إِيَّايَ فاعبدون، فاستغنى بأحد الفعلين عن الثاني، والفاء في قوله: ﴿فَإِيَّايَ﴾ بمعنى الشرط^(٢)، أي: إن ضاق بكم موضعُ فَإِيَّايَ فاعبدوني [في غيره]^(٣)؛ لأن أرضي واسعة.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ تقدم في «آل عمران»^(٤). وإنما ذكره هاهنا تحقيراً لأمر الدنيا ومخاوفها. كأن بعض المؤمنين نظر في عاقبة تلحقه في خروجه من وطنه من مكة أن يموت أو يجوع أو نحو هذا، فحقر الله شأن الدنيا. أي: أنتم لا محالة ميتون ومحشورون إلينا، فالبدار إلى طاعة الله والهجرة إليه وإلى ما يمثل. ثم وعد المؤمنين العاملين بسكنى الجنة تحريضاً منه تعالى، وذكر الجزاء الذي ينالونه، ثم نعتهم بقوله: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(٥). وقرأ أبو عمرو ويعقوب والجحدري وابن أبي إسحاق وابن محيصن والأعمش وحمزة والكسائي وخلف: «يا عبادي» بإسكان الياء. وفتحها الباقون^(٦). «إن أرضي» فتحها ابن عامر، وسكنها الباقون^(٧).

وروي أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَرَّبَ بَدِينَهُ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ وَلَوْ قِيدَ شِبْرٍ اسْتَوْجِبَ الْجَنَّةَ، وَكَانَ رَفِيقَ مُحَمَّدٍ وَإِبْرَاهِيمَ» عليهما السلام^(٨).

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/٢٣٤.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/١٧٢-١٧٣.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٤) ٥/٤٤٧ فما بعده.

(٥) المحرر الوجيز ٤/٣٢٤.

(٦) قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي في السبعة ص ٥٠١-٥٠٢، وقراءتهم وقرآءة يعقوب وخلف وهما من العشرة في النشر ٢/١٧٠.

(٧) السبعة ص ٥٠٢، والتيسير ص ١٧٤.

(٨) تفسير أبي الليث ٢/٥٤٢، والكشاف ٣/٢١٠، وقد سلف ٧/٦٤.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ وقرأ السلمي وأبو بكر عن عاصم: «يُرْجَعُونَ» بالياء؛ لقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وقرأ الباقون بالتاء؛ لقوله: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(١) وأنشد بعضهم:

الموتُ في كلِّ حينٍ ينشدُ الكفنا ونحنُ في غفلةٍ عمَّا يُرادُ بنا
لا تركزنَّ إلى الدنيا وزهرتها وإنَّ توشَّحتَ من أثوابها الحسنا
أينَ الأحبةُ والجيرانُ ما فعلوا أينَ الذينَ همُّو كانوا لها سَكنا
سقاَهُمُ الموتُ كأساً غيرَ صافيةٍ صيَّروهم تحتَ أطباقِ الثَّرى رُهنا

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ وقرأ ابن مسعود والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائي: «لَنُبَوِّئَنَّهُم» بالثاء مكان الباء من الثوي: وهو الإقامة^(٢)، أي: لنعطينهم غرفاً يثوون فيها^(٣). وقرأ رويس عن يعقوب والجحدري والسلمي: «لَيُبَوِّئَنَّهُم» بالياء مكان النون^(٤). الباقون «لَيُبَوِّئَنَّهُم» أي: لننزلنهم ﴿غُرَفًا﴾^(٥) جمع غرفة وهي العلية المشرفة^(٦). وفي «صحيح مسلم»^(٧) عن سعيد الخدري^(٨) أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أهل الجنة ليتراءون أهلَ الغُرفِ من فوقهم كما تتراءون الكوكبَ الدُّرِّيَّ الغابِرَ من الأفق من المشرق أو المغرب لِتفاضلِ ما بينهم» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم. قال: «بلى،

(١) قراءة أبي بكر عن عاصم في السبعة ص ٥٠٢، والتيسير ص ١٧٤.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٣٢٤ دون ذكر الأعمش. وقراءة حمزة والكسائي في السبعة ص ٥٠٢، والتيسير ص ١٧٤.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/٢٣٤.

(٤) المشهور عن يعقوب: لنُبَوِّئَنَّهُم. النشر ٢/٣٤٤.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/٢٣٤.

(٦) الصحاح (غرف).

(٧) (٢٨٣١). وأخرجه البخاري (٣٢٥٦).

(٨) في النسخ: سهل بن سعد، والتصويب من الصحيحين.

والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين». وخرَجَ الترمذي^(١) عن عليّ ؑ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَعُرْفًا يُرَى ظَهْرُهَا مِنْ بَطُونِهَا وَبَطُونُهَا مِنْ ظَهْرِهَا» فقام إليه أعرابيٌّ فقال: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «هِيَ لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى لِلَّهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ» وَقَدْ زِدْنَا هَذَا الْمَعْنَى بَيَانًا فِي كِتَابِ «التَّذَكُّرَةِ»^(٢) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أسند الواحدي عن يزيد بن هارون قال: حَدَّثَنَا الْجَرَّاحُ^(٣) بن المنهال، عن الزُّهري - وهو عبد الرحمن بن عَطَّاف^(٤) - عن عطاء، عن ابن عمر قال: خرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى دَخَلَ بَعْضُ حَيَّطَانِ الْأَنْصَارِ، فَجَعَلَ يَلْتَقِطُ مِنَ الثَّمَرِ [وَيَأْكُلُ] فَقَالَ: «يَا ابْنَ عَمْرٍ، مَا لَكَ لَا تَأْكُلُ؟» فَقُلْتُ: لَا أَشْتَهِيهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: «لَكِنِّي أَشْتَهِيهِ، وَهَذِهِ صَبِيحَةٌ رَابِعَةٌ لَمْ أَذُقْ طَعَامًا، وَلَوْ شِئْتُ لَدَعَوْتُ رَبِّي فَأَعْطَانِي مِثْلَ مَلِكِ كَسْرَى وَقَيْصَرَ، فَكَيْفَ بِكَ يَا ابْنَ عَمْرٍ إِذَا بَقِيَتْ فِي قَوْمٍ يُخْبِتُونَ رِزْقَ سَنَّتِهِمْ وَيَضْعِفُ الْيَقِينَ» قَالَ: وَاللَّهِ مَا بَرِحْنَا حَتَّى نَنْزَلَتْ: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٥).

قلت: وهذا ضعيفٌ يُضْعِفُهُ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ يَدْخِرُ لِأَهْلِهِ قَوْتًا

(١) في سننه (١٩٨٤) و(٢٥٢٧)، وهو في مسند أحمد من زوائد ابنه عبد الله (١٣٣٨).

(٢) ص ٤٦١-٤٦٤.

(٣) في النسخ: حجاج، والتصويب من المصادر.

(٤) في النسخ: عبد الرحيم بن عطاء، وفي أسباب النزول: عبد الرحمن بن عطاء، وفي الوسيط:

عبد الرحيم بن عطاء، والتصويب من تهذيب التهذيب ٥٣٤/٢، وثقات ابن حبان ٧٠/٧.

(٥) أسباب النزول ص ٣٥٨-٣٥٩، والوسيط ٤٢٥/٣، وما بين حاصرتين منهما. وأخرجه - أيضاً - عبد بن

حميد (٨١٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٤٧١٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٢٧/٤ من طريق

يزيد بن هارون، به. إلا أنهم قالوا: عن رجل، بدل: عطاء. والجراح بن منهال متروك. ميزان الاعتدال

٣٩٠/١. وعبد الرحمن بن عطاء مجهول الحال، تفرد بالرواية عنه اثنان، ولم يوثقه غير ابن حبان

على عادته في توثيق المجاهيل.

سَنَتِهِمْ . اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ ^(١) . وَكَانَتِ الصَّحَابَةُ يُفْعَلُونَ ذَلِكَ وَهُمْ الْقِدْوَةُ ، وَأَهْلُ الْيَقِينِ وَالْأَثْمَةُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْمُتَّقِينَ الْمُتَوَكِّلِينَ . وَقَدْ رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَكَّةَ حِينَ آذَاهُمُ الْمُشْرِكُونَ : « اُخْرَجُوا إِلَى الْمَدِينَةِ وَهَاجِرُوا وَلَا تَجَاوَرُوا الظُّلْمَةَ » قَالُوا : لَيْسَ لَنَا بِهَا دَارٌ وَلَا عَقَارٌ وَلَا مَنْ يُطْعِمُنَا وَلَا مَنْ يَسْقِينَا . فَنَزَلَتْ : ﴿ وَكَأَنِّ مِّنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ ^(٢) أَي : لَيْسَ مَعَهَا رِزْقُهَا مُدْخِرًا ، وَكَذَلِكَ أَنْتُمْ يَرْزُقُكُمْ اللَّهُ فِي دَارِ الْهَجْرَةِ ^(٣) . وَهَذَا أَشْبَهُهُ مِنَ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ . وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي « كَأَنَّ » وَأَنَّ هَذِهِ « أَيَّ » دَخَلَتْ عَلَيْهِ كَافُ التَّشْبِيهِ وَصَارَ فِيهَا مَعْنَى كَمْ . وَالتَّقْدِيرُ عِنْدَ الْخَلِيلِ وَسَيَبُويه كَالْعَدَدِ . أَي : كَشِيءٍ كَثِيرٍ مِنَ الْعَدَدِ مِنْ دَابَّةٍ ^(٤) . قَالَ مُجَاهِدٌ : يَعْنِي الطَّيْرَ وَالْبَهَائِمَ تَأْكُلُ بِأَفْوَاهِهَا وَلَا تَحْمِلُ شَيْئًا . الْحَسَنُ : تَأْكُلُ لَوْقَتِهَا وَلَا تَدْخِرُ لَعْدٍ ^(٥) . وَقِيلَ : ﴿ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ أَي : لَا تَقْدِرُ عَلَى رِزْقِهَا ^(٦) ﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا ﴾ أَيْنَمَا تَوَجَّهَتْ ﴿ وَإِيَّاكُمْ ﴾ ^(٧) . وَقِيلَ : الْحَمْلُ بِمَعْنَى الْحَمَالَةِ ^(٨) . وَحَكَى النِّقَاشُ : أَنَّ الْمُرَادَ النَّبِيَّ ﷺ يَأْكُلُ وَلَا يَدْخِرُ ^(٩) .

قلت : وليس بشيء ؛ لإطلاق لفظ الدابة ، وليس مستعملاً في العرف إطلاقاً على الآدمي فكيف على النبي ﷺ . وقد مضى هذا في « النمل » عند قوله : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ [الآية : ٨٢] . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الدَّوَابُّ : هُوَ كُلُّ

(١) صحيح البخاري (٥٣٥٧) ، وصحيح مسلم (١٧٥٧) (٥٠) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ .

(٢) النكت والعيون ٢٩٣/٤ ، وتفسير البغوي ٤٧٣/٣ .

(٣) المحرر الوجيز ٣٢٤/٣ بنحوه .

(٤) سلف ٣٤٩/٥ .

(٥) النكت والعيون ٢٩٣/٤ .

(٦) مجمع البيان ٣٧٧/٢٠ .

(٧) زاد المسير ٢٨٣/٦ .

(٨) المحرر الوجيز ٣٢٥/٤ .

(٩) النكت والعيون ٢٩٣/٤ .

ما دبَّ من الحيوان، فكلُّه لا يَحِيلُ رِزْقَهُ ولا يَدَّخِرُ إِلَّا ابْنُ آدَمَ والنَّمْلُ والفَأْرُ^(١). وعن بعضهم: رأيتُ البلبَلِ يحتكر في مِحْضِنِهِ. ويُقال: لِلْعَقَقِ مَخَابِي إِلَّا أَنَّهُ يَنْسَاهَا^(٢). ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ يسوِّي بين الحريص والمُتَوَكِّلِ في رِزْقِهِ، وبين الرَّاغِبِ والقانِعِ، وبين الحَيُولِ والعَاجِزِ حتى لا يَغْتَرَّ الجِلْدُ أَنَّهُ مَرْزُوقٌ بِجِلْدِهِ، ولا يَتَصَوَّرَ العَاجِزُ أَنَّهُ مَمْنُوعٌ بَعِجْرِهِ^(٣). وفي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لو أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»^(٤). ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لِدَعَائِكُمْ وَقَوْلِكُمْ: لا نَجِدُ ما نُنْفِقُ بِالمَدِينَةِ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما في قُلُوبِكُمْ^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَلِإِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِإِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية. لما عيَّر المشركون المسلمين بالفقر وقالوا: لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء. وكان هذا تمويهاً، وكان في الكفار فقراء أيضاً أزال الله هذه الشبهة. وكذا قول من قال: إن هاجرنا لم نجد ما ننفق. أي: فإذا اعترفتم بأن الله خالق هذه الأشياء، فكيف تشكون في الرزق، فمن يديه تكوين الكائنات لا يعجز عن رزق العبد؛ ولهذا وصله بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾. ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يكفرون بتوحيدي وينقلبون عن عبادتي. ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي: لا يختلف أمر الرزق بالإيمان والكفر، فالتوسيع والتقتير منه فلا تعبير بالفقر، فكلُّ شيءٍ بقضاءٍ وقدر. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

(١) المصدر السابق.

(٢) الكشف ٢١١/٣.

(٣) النكت والعيون ٢٩٣/٤.

(٤) سلف ٢٩٧/٧ و١٠٩/١٠.

(٥) تفسير البغوي ٤٧٣/٣، وزاد المسير ٢٨٣/٦.

شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ من أحوالكم وأموركم. وقيل: عليم بما يصلحكم من إقتارٍ أو توسيع.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: من السحاب مطراً. ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ أي: جذبها وقحط أهلها. ﴿لِيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ أي: فإذا أقررتم بذلك فلم تشركون به وتتكرون الإعادة. وإذا قدر على ذلك فهو القادر على إغناء المؤمنين، فكرر تأكيداً. ﴿قُلِ لَعَمْرُ لِلَّهِ﴾ أي: على ما أوضح من الحجج والبراهين على قدرته. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا يتدبرون هذه الحجج. وقيل: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» على إقرارهم بذلك^(١). وقيل: على إنزال الماء وإحياء الأرض.

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ﴾ أي: شيء يلهى به ويلعب. أي: ليس ما أعطاه الله الأغنياء من الدنيا إلا وهو يضمحلٌ ويزول، كاللعب الذي لا حقيقة له ولا ثبات، قال بعضهم: الدنيا إن بقيت لك لم تثق لها. وأنشد:

تروح لنا الدنيا بغير الذي غدت وتحدث من بعد الأمور أمور
وتجري الليالي باجتماع وفرقة وتطلع فيها أنجم وتغور
فمن ظن أن الدهر باق سروره فذاك مُحال لا يدوم سرور
عفا الله عمَّن صيرَ الهَمَّ واحداً وأيقن أن الدائرات تدور

قلت: وهذا كله في أمور الدنيا والجاه والملبس الزائد على الضروري الذي به قوام العيش، والقوة على الطاعات. وأما ما كان منها لله فهو من الآخرة، وهو الذي يبقى كما قال: ﴿وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] أي: ما ابتغي به ثوابه ورضاه. ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوانُ﴾ أي: دار الحياة الباقية التي لا تزول ولا

(١) تفسير أبي الليث ٥٤٣/٢، وتفسير البغوي ٤٧٤/٣.

موتَ فيها^(١). وزعم أبو عبيدة: أن الحيوانَ والحياةَ والحَيَّ - بكسر الحاءِ - واحدٌ، كما قال:

وقد ترى إذ الحياةَ حيَّ

وغيره يقول: إنَّ الحَيَّ جمعٌ على فعول مثل عِصي^(٢). والحيوان يقع على كلِّ شيءٍ حيٍّ. وحيوان عينٌ في الجنة. وقيل: أصلُ حَيَّوان حَيَّيان، فأبدلتَ إحداهما واواً؛ لاجتماع المثلين^(٣). ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أنها كذلك.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا بَجَحْتُهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿١٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ﴾ يعني السفن وخافوا الغرق ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ أي: صادقين في نياتهم، وتركوا عبادة الأصنام ودعاءها^(٤). ﴿فَلَمَّا بَجَحْتُهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: يدعون معه غيره، وما لم يُنزل به سلطاناً. وقيل: إشراكهم أن يقول قائلهم: لولا الله والرئيسُ أو الملاحُ لغرقنا، فيجعلون ما فعل الله لهم من النجاة قسمةً بين الله وبين خلقه.

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْا﴾ قيل: هما لام كي، أي: لكي يكفروا ولكي يتمتعوا. وقيل: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ ليكون ثمرة شركهم أن يجحدوا نِعَمَ الله ويتمتعوا بالدنيا. وقيل: هما لام أمرٍ معناه التهديد والوعيد^(٥). أي اكفروا بما أعطيناكم من النعمة والنجاة من البحر وتمتعوا. ودليل هذا قراءة أبيي: «وَتَمَنَّوْا»^(٦).

(١) معاني القرآن للفراء ٣١٨/٢، وتفسير البغوي ٤٧٤/٣.

(٢) إعراب القرآن ٣/٢٥٩-٢٦٠، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ١١٧/٢، والرجز للعجاج كما في اللسان (حيا) وتتمته: وإذ زمان الناس دغفلي.

(٣) المحكم لابن سيده (حي).

(٤) تفسير أبي الليث ٣٦٣/٢، وتفسير البغوي ٤٧٤/٣.

(٥) الوسيط ٣/٤٢٦، وتفسير البغوي ٤٧٤/٣، وزاد المسير ٦/٢٨٤.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/٥٤٤، وهي قراءة شاذة.

ابن الأنباري: ويقوِّي هذا قراءة الأعمش ونافع وحمزة: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ بجزم اللام. النحاس: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ لام كي، ويجوز أن تكون لام أمر؛ لأن أصل لام الأمر الكسر، إلا أنه أمر فيه معنى التهديد. ومن قرأ: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ بإسكان اللام لم يجعلها لام كي؛ لأن لام كي لا يجوز إسكانها^(١). وهي قراءة ابن كثير والمسيبي وقالون عن نافع، وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم. الباقون بكسر اللام^(٢). وقرأ أبو العالية: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾^(٣) تهديد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُخَاطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِيَا بُنِطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ؕ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ قال عبد الرحمن بن زيد: هي مكة وهم قريش آمنهم الله تعالى فيها. ﴿وَيُخَاطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ قال الضحاك: يقتل بعضهم بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً^(٤). والخطف: الأخذ بسرعة. وقد مضى في «القصص»^(٥) وغيرها. فأذكرهم الله عزَّ وجلَّ هذه النعمة ليدعنوا له بالطاعة. أي: جعلتُ لهم حرمًا آمنًا آمنوا فيه من السَّبي والغارة والقتل، وخلَّصتُهم في البر كما خلَّصتُهم في البحر، فصاروا يُشركون في البرِّ ولا يُشركون في البحر. فهذا تعجُّب من تناقض أحوالهم.

﴿أَفِيَا بُنِطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ قال قتادة: أفيالشرك. وقال يحيى بن سلام: أفيابليس. ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ قال ابن عباس: أبعافية الله. وقال ابن شجرة: أبعطاء الله وإحسانه.

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٠.

(٢) السبعة ص ٥٠٢، والتيسير ص ١٧٤.

(٣) الشاذة ص ١١٥.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٩٤.

(٥) ٢٩٩/١٦.

وقال ابن سلام: أفبما جاء به النبي ﷺ من الهدى. وحكى النقاش: أفباطعاهم من جوع، وأمنهم من خوف يكفرون. وهذا تعجب وإنكارٌ خرج مخرج الاستفهام^(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحد أظلم ممن جعل مع الله شريكاً وولداً، وإذا فعل فاحشة قال: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْنَا آيَاتِنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ قال يحيى بن سلام: بالقرآن. وقال السُّدي: بالتوحيد. وقال ابن شجرة: بمحمد ﷺ^(٢). وكل قول يتناول القولين ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي: مستقر. وهو استفهام تقرير^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ أي: جاهدوا الكفار فينا. أي: في طلب مرضاتنا. وقال السُّدي وغيره: إن هذه الآية نزلت قبل فرض القتال. قال ابن عطية: فهي قبل الجهاد العرفي، وإنما هو جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته. قال الحسن ابن أبي الحسن: الآية في العباد. وقال ابن عباس وإبراهيم بن أدهم: هي في الذين يعملون بما يعلمون. وقد قال ﷺ: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ اللَّهُ مَا لَمْ يَعْلَمْ»^(٤) ونزع بعض العلماء إلى قوله: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وقال عمر بن عبد العزيز: إنما قصر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا في العلم بما علمنا، ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾. وقال أبو سليمان الداراني: ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط، بل هو نصر الدين، والرد على المبطلين، وقمع الظالمين، وعظمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله، وهو الجهاد الأكبر. وقال

(١) النكت والعيون ٢٩٤/٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير البغوي ٤٧٤/٣، ومجمع البيان ٣٨٢/٢٠.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٥/١٠ من حديث أنس بن مالك.

سفيان بن عُيَيْنَةَ لابن المبارك: إذ رأيتَ الناسَ قد اختلفوا فعليكَ بالمجاهدين وأهل الشغور، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾. وقال الضحَّاك: معنى الآية: والذين جاهدوا في الهجرة لنهدينهم سُبُلَ الثبات على الإيمان^(١). ثم قال: مثلُ السُّنَّةِ في الدنيا كمثل الجنة في العُقبى، مَنْ دخل الجنة في العُقبى سَلِمَ، كذلك مَنْ لَزِمَ السُّنَّةَ في الدنيا سَلِمَ. وقال عبد الله بن عباس: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سُبُلَ ثوابنا^(٢). وهذا يتناول بعموم الطاعة جميع الأقوال، ونحوه قولُ عبد الله بن الزبير قال: تقول الحكمة: مَنْ طلبني فلم يجدني فليطلبني في موضعين: أن يعمل بأحسن ما يعلمه، ويجتنب أسوأ ما يعلمه. وقال الحسن بن الفضل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، أي: الذين هديناهم هم الذين جاهدوا فينا.

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا﴾ أي: طريق الجنة. قاله السُّدِّيُّ. النقَّاش: يوفِّقهم لدين الحق. وقال يوسف بن أسباط: المعنى: لنُخْلِصَنَّ نِيَّاتِهِمْ وَصِدْقَاتِهِمْ وَصَلَوَاتِهِمْ وَصِيَامَهُمْ^(٣). ﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لأم تأكيد، ودخلت في «مَعَ» على أحد وجهين: أن يكون اسماً، ولأم التوكيد إنما تدخل على الأسماء، أو حرفاً فتدخل عليها؛ لأنَّ فيها معنى الاستقرار، كما تقول: إنَّ زيدا لفي الدار. و«مَعَ» إذا سُكُنَتْ فهي حرفٌ لا غير. وإذا فُتِحَتْ جاز أن تكون اسماً، وأن تكون حرفاً، والأكثرُ أن تكون حرفاً جاء لمعنى^(٤). وتقدَّم معنى الإحسان والمحسنين في «البقرة»^(٥) وغيرها. وهو سبحانه معهم بالنصرة والمعونة، والحفظ والهداية، ومع الجميع بالإحاطة والقدرة. فبين المعيتين بونٌ.

تمت سورة العنكبوت، والحمد لله وحده

(١) من بداية الآية إلى هنا من المحرر الوجيز ٣٢٦/٤.

(٢) تفسير البغوي ٤٧٥/٣.

(٣) النكت والعيون ٢٩٥/٤.

(٤) إعراب القرآن ٢٦٠/٣.

(٥) ٢٦٣/٣.